

العدد التاسع / السنة الثالثة / (أكتوبر - ديسمبر) 2007

www.hiramagazine.com



صدورنا بستان، للشفقة والتّحْنان. نقطف منها الباقات ونُهديها للإنسان في كلّ مكان.

هلُمَّ يا إنسان! بمُرْهَفِ إنسانيتك نناشدك! افْتَح لنا الطريق لنتخطّى العقبات ونستقِلّ الأجواء ونقطع الأمداء، بروحنا الحنون وجناحنا الرفَّاف بالظّلّ والأشواق...!

* * *

قوانا الذاتية

قد لا يكون في وسعنا أن نفهم أو نقيس القوى العظيمة التي تنطوي عليها الأمة حين نقف على ما يطفو على سطحها من ظواهر عادية قد لا تثير اهتمام أحد. وهذه الظواهر لا تعني أنّ القوى غير العادية والخارقة في دواخلها ليست بموجودة؛ بل هي موجودة، غير أنها مصونة عن الأنظار وفي حاجة إلى صاحب النظر النافذ والحاد لكي يقاربها، ومن ثَمَّة يبرزها للعيان.

إنّ تعاساتنا وإحباطاتنا المتتالية قد تشكل حاجزاً يعشي أنظارنا فلا نستطيع النظر إلى الأعمق من ذاتية الأمة وتكويناتها الذهنية والوجدانية المطمورة في أعماقها، لذلك فكل جهد يبذل من أجل تحديد النظر إلى ذاتية الأمة وأعماقها التاريخية والحضارية فهو جهد مشكور وهو بالتالي يسهم في عملية الانبعاث المرتقب. فمقال أستاذنا فتح الله كولن في مفتتح "حراء" "نحو عالمنا الذاتي" يهدف في جملته إلى تجديد الأمل في عظمة الأمة وبانبعاثها عندما تتوفر عوامل هذا الانبعاث كما يراها الأستاذ.

وأيُّ انبعاث لا يستند إلى القرآن والسنّة المطهرة جهد ضائع لا يفضي إلاّ إلى المزيد من الإخفاق والإحباط، ومن هنا جاء اهتمام الشعوب الإسلامية غير العربية بالقرآن وبلغة القرآن. وكان الأستاذ الدكتور خالد الصمدي موفقاً في الإشارة إلى هذه المعاني في مقاله "لغة العرب أم لغة القرآن".

والأستاذ البوطي، هذا القلب الحزين والكسير يناجي ربّه مناجاة مقتطعة من حنايا روحه، وإنها بالتأكيد ستشيع في قراء "حراء" حزناً سامياً محبباً يذكّرهم بالعجز والافتقار إلى رحمة الجليل القهار.

ولا نكاد ننتهي من هذه المناجاة حتى يطالعنا أديب الدباغ بصفحة من صفحات "نثره الفني" ذي النفَس الشاعري عن "درويش في بلاد الأناضول" وهو مترع بالرمزية والإيمائية إلى معانٍ يعجز القلم في كثير من الأحيان عن الإفصاح عنها.

ونخرج من هذه "الرمزيات والإيمائيات" لنعود إلى شاعرة الإيماء والرمز سعاد الناصر في قصيدتها الجميلة "همس الورود" وإلى "نبيلة الخطيب" في قصيدتها "طوبى"، ثم إلى كبير شعراء المغرب العربي الأستاذ حسن الأمراني في قصيدته الرائعة "مكة"، والمغربي الآخر الأستاذ الكبير فريد الأنصاري في مقاله الرائع عن "فلسفة العمر"، ومن هنا نعرج لنطالع "فلسفة الإسلام في التعايش مع الآخر الديني والثقافي" للأستاذ الكبير والباحث الجاد الدكتور محمد عمارة الذي لا ينفك يتحفنا بروائعه الإسلامية التي يتتلمذ عليها آلاف القراء في العالمين العربي والإسلامي.. إلى جانب مقالات أخرى تثري حياتنا الفكرية والإيمانية، ومن الله التوفيق. ■



حراء

مجلة علمية ثقافية فصلية

www.hiramagazine.com

العدد التاسع – السنة الثالثة (أكتوبر – ديسمبر) 2007

التصور العام

- حراء مجلة علمية ثقافية فصلية تعنى بالعلوم الطبيعية والإنسانية والاجتماعية وتحاور أسرار النفس البشرية وآفاق الكون الشاسعة بالمنظور القرآني الإيماني في تآلف وتناسب بين العلم والإيمان، والعقل والقلب، والفكر والواقع.
- تجمع بين الأصالة والمعاصرة وتعتمد الوسطية في فهم الإسلام وفهم الواقع، مع البعد عن الإفراط والتفريط.
- تؤمن بالانفتاح على الآخر، والحوار البناء والهادئ فيما يصب لصالح الإنسانية.
- تسعى إلى الموازنة بين العلمية في المضمون والجمالية في الشكل وأسلوب العرض، ومن ثم تدعو إلى معالجة المواد بمهنية عالية مع التبسيط ومراعاة الجوانب الأدبية والجمالية في الكتابة.

شروط النشر

- أن يكون النص المرسل جديدا لم يسبق نشره.
- ألا يزيد حجم النص على ٢٠٠٠ كلمة كحد أقصى، وللمجلة أن تلخص أو تختصر النصوص التي تتجاوز الحد المطلوب.
- يرجى من الكاتب الذي لم يسبق له النشر في المجلة إرسال نبذة مختصرة عن سيرته الذاتية.
- تخضع الأعمال المعروضة للنشر لموافقة هيئة التحرير، ولهيئة التحرير أن تطلب من الكاتب إجراء أي تعديل على المادة المقدمة قبل إجازتها للنشر.
- المجلة غير ملزمة بإعادة النصوص إلى أصحابها نشرت أم لم تنشر، وتلتزم بإبلاغ أصحابها بقبول النشر، ولا تلتزم بإبداء أسباب عدم النشر.
- تحتفظ المجلة بحقها في نشر النصوص وفق خطة التحرير وحسب التوقيت الذي تراه مناسبا.
- النصوص التي تنشر في المجلة تعبِّر عن آراء كُتَّابها، ولا تعبِّر بالضرورة عن رأي المجلة.
- للمجلة حق إعادة نشر النص منفصلاً أو ضمن مجموعة من البحوث، بلغته الأصلية أو مترجمًا إلى أي لغة أخرى، دون حاجة إلى استئذان صاحب النص.
- مجلة حراء لا تمانع في النقل أو الاقتباس عنها شريطة ذكر المصدر.

يرجى إرسال جميع المشاركات إلى هيئة تحرير المجلة على العنوان الآتي:

hira@hiramagazine.com

مجلة علمية ثقافية فصلية تصدر عن:
Işık Özel Eğitim Tic. Ltd. Şti.
İstanbul / Türkiye

صاحب الامتياز
أنس أركنه
mergene@hiramagazine.com

المشرف العام
نوزاد صواش
nsavas@hiramagazine.com

رئيس التحرير المسؤول
هانئ رسلان
hraslan@hiramagazine.com

مدير التحرير
أشرف أونن
eonen@hiramagazine.com

المخرج الفني
مراد عرباجي
marabaci@hiramagazine.com

المركز الرئيس
HIRA MAGAZINE
Emniyet Mah. Huzur Sok.
No:5 34676 Üsküdar
İstanbul / Turkey
Phone: +902163186011
Fax: +902163184202
hira@hiramagazine.com

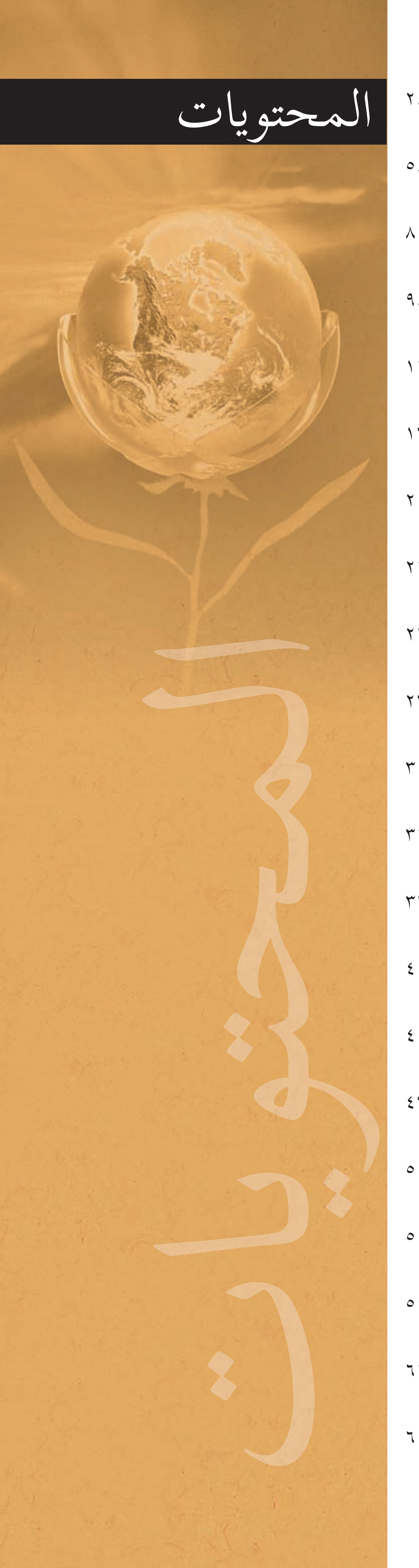
الاشتراكات/مركز التوزيع
٧ ش البرامكة – الحي السابع – م.نصر/القاهرة
تليفون وفاكس: +20222619204
جمهورية مصر العربية
sub@hiramagazine.com

نوع النشر
مجلة دورية دولية

Yayın Türü
Yaygın Süreli

الطباعة
مطابع الأهرام التجارية / قليوب
جمهورية مصر العربية
Tel: +90 (232) 252 20 96

رقم الإيداع
١٨٧٩–١٣٠٦



المحتويات



نحو عالمنا الذاتي

فتح الله گولن

لقد تكـــرر الكلام كثيرًا عن دعـــاوي البناء من جديد في عهود وأزمان متعـــددة وبقاع متنوعة مـــن الأرض وبعناوين مختلفة. ولكن يبقى صدق هذه الدعاوى قابلاً للأخذ والرد ومفتوحًا للنقاش في كل وقت. إلاّ أن هنالك عالَمًا يوفي عملية البناء حقها... بتناول واحتضان الوجود وما وراء ســـتار الوجود، والإنسان والحياة جميعًا، عالَمًا حـــرًّا وطليقًا من كل القيود المذكورة آنفًـــا. ولا ريب أن هذا العالم، وباعتبار الأمد الطويل خاصة، هو عالمنا ودنيانا نحن.

إن عالمنـــا هذا -بعد أن عانى على مـــدى قرون من أزمات وزلازل مديـــدة- ما زال قادرًا -رغم كل شـــيء- على تحقيق تكوين في الحاضر من جديد؛ وما برح يحمل في كيانه قوة كامنة للانبعـــاث من جديد؛ ولديه من تراكـــم وخزين معرفي وخبرة حضارية ما يؤهّله لإرشاد ما حوله من التكونات الجديدة؛ ومن جانب آخر إن قيادته للأمم آمادًا مديدة تركت فرصًا مكتســـبة

من القبول الكامن تحت الشعور في الشعوب المنقادة له منذ الزمن الغابر، وعالمنا هو مقتدر على استعمالها اليوم. أجل، إنه جاهز تمامًا بالقيام بدوره، لكن عليه أن يستعمل بشكل صحيح وسليم مرة أخرى المحركات التاريخية التي تُعدّ دمَ هذا الماضي العظيم العريق ولحمَه.

كان عالمنا يسبق عصره بخطوات واسعة في العلوم الطبيعية والدينية، وفي التصوف والمنطق، وفي تخطيط المدن والجماليات، وفي كل مجال ومضمار، بدُهاةٍ نفشوا الوجود كالخوارزمي والبيروني وابن سينا والزهراوي؛ وبأساتذة الفقه والحقوق كأبي حنيفة والإمام محمد والسرخسي والمرغيناني؛ وبذوي استعدادات اجتازت المعايير الإنسانية وعاشوا في محور الوجدان بتغليب مزيج القلب والمنطق على المنطق الصرف كالإمام الغزالي والرازي ومولانا جلال الدين الرومي والشاه النقشبند؛ وبأبطال المحاكمة والفطنة كالإمام الماتريدي والتفتازاني والجرجاني والدواني؛ وبعمالقة الفن كالمعْمار خير الدين والمعْمار سِنان وعِطْري وديده أفَنْدي.. إن هذا العالم يُمكِنه -بعد هذه الفترة العابرة- أن يحرّك مجدَّدًا كل الأرواح والأدمغة المنورة، فيحقق النهضة العالمية الثانية أو الثالثة.

أجل، إن عالمنا هذا يستطيع أن يفتح صفحة جديدة بالتوصل إلى تفسير جديد للكون من خلال الإحساس بالروح الإسلامي ومعناه؛ وإلى فكر ماورائي عالَمي (كوني) من خلال الأجواء العميقة والربانية للتصوف؛ وإلى التيقظ والتمكين اللذين يكسبان الإنسان قيمة فوق القيم، من خلال المحاسبة والمراقبة الإسلامية؛ وإلى جمالية تتقبلها وتتبنّاها الجماهير، من خلال المدن وتخطيطها بحيث نتمكّن نحن عبرها من التعبير عما بدواخلنا ويتمكن غيرنا من فهم ما أودعنا فيها من المشاعر؛ وإلى أذواق بديعية حقيقية أصبحت أخروية ولطيفة ومتّحدة بعالم الماوراء، من خلال الفن الذي يَنقش في كل مكان الروحَ والمعنى، ويتحرى في نقشه عن اللانهائي. نعم، يستطيع عالمنا أن يفتح هذه الصفحة الجديدة، على الرغم من أنه يبدو عملا غير يسير.

التخلية والتحلية

نعم، إننا لن نقدر على أن نفتح الصفحة الجديدة من غير انتزاع التصورات والأفكار المنحرفة السائبة في أراضينا منذ سنين وسنين، مثل إضناء الحياة الروحية وإذوائها بدرجة كبيرة، وتعطيل عمل معانينا الدينية؛ ووضع الأقفال على ألسنة القلوب بتَنسية الوجد والعشق تمامًا، ولجوء المثقفين المفكرين والدارسين إلى المادية الوضعية الكثيفة وانحباسهم فيها، وإحلال التعصب والتنطع محل الصلابة والثبات في الحق، وحتى في طلب الآخرة والجنة، طلبها بنظر دوام السعادة الدنيوية المعتادة!

وليس المقصود من هذا القول أننا عاجزون عن انتزاع اللوثيات اللاصقة بأرواحنا في القرون الأخيرة، بل الإفادة بأن بلوغ برّ الأمان عسير غاية العسر ما لم نتخلص كأمة من أسباب ودواعي انهيارنا وانحلالنا الحقيقية، مثل الحرص والكسَل وطلب الشهرة وشهوة السلطة والأنانية والميل إلى الدنيا وغيرها من الأحاسيس والمشاعر، وما لم نتوجَّهْ إلى الحق بما يُعدّ جوهر الإسلام وحقيقته كالاستغناء والجسارة ونكران الذات والاهتمام بهَمّ الآخر والروحانية والربانية، وما لم نُصفَّ بمشاعر الحق ونصبَّ في قالبه... لكن العسر الشديد لا يعني المحال. فما لم تَخْلُ الساحة -وهي ليست خالية فعلا- من شجعان مالكين لإرادةٍ تجديدية تحتضن العصر، مع الحفاظ على الجوهر واللب، فسيتحقق -لا شك- هذا التجدد والتغيّر... تجدد وتغير ذو أبعاد قرآنية وسجايا فطرية... سيتحقق هذا بحيث يعجز عن ممانعته الجموع المنغلقة تجاه هذا التصور والمصرّة على هذا الانغلاق، تعجزهم عن صد التيار.

أرواح عظيمة ونهضات عظيمة

فإن النهضات العالمية التي عرفناها وعلمنا بها حتى اليوم، كانت ثمرة سعي الدهاء الفردي، لا حملات الكتل البشرية وحركاتها... فقد كانت التجديدات والتغييرات التي بلغت حد الانفجار أحيانا في السنوات المتعاقبة بعد ظهور الإسلام، من آثار عدد قليل من الأرواح الفذة والعقول الذكية الاستثنائية والأفكار الممتازة التي سمقت في العهد الأموي والعباسي، كما كانت هذه الفكرة الواسعة والروح العميقة والفطرة البراقة خلف التحرك والتكون المنبعث عن المركز في العهد الإيلْخاني والقَرَه خَاني والسلجوقي والعثماني. إن المسلك الذي افتتحه هؤلاء الروّاد

الذيـــن ظهروا بمعنوية عاليـــة في كل مرحلة من المراحل، تَحوّل بعـــد لأيٍ ومدةٍ إلى مدارس وتيارات تنفخ روح البناء من جديد في الكتل البشــــرية. فتابع من سار خلفهم طريق أولئك الأرواح المرشدة وتعقبوا درب أفكارهم، وانحشرت الحشود على أثرهم، ولجأوا إلى إقليمهم الوضّاء. فعاش هؤلاء المرشـــدون العظام مع الحشود وكأنهم الروح والدم منهم. أما في مراحل أفول الأدمغة العظيمة السامقة هذه، وغياب مَن يسدّ فراغهم من بعدهم، فإن الذهول وتفحّم الفكر وعقم التجديد أصاب المجتمع بكل أصنافه وطبقاته، وأصبح التجدد من قبيل المستحيلات.

وفي هذه الأثناء، إذ تتحول الأيـــام إلى الربيع، ويتبع الفجرَ فجـــرٌ، ينتعش أملنا وانتظارنا، فندعو ربنـــا تعالى أن يهَبنا إرادةً مؤيَّدة بالمشيئة تُعيننا في إقامة صرح روحنا، وجعْل قلوبنا خضراء كربوع الجنة، والســـموّ بقلوبنا إلى فهم أســـرار حرم الألوهية، وأن يُلهم أمتنا طريق التجدد في خط الســـير المحمدي عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم.

الأمل المشرق

إن ســـعينا لتحقيق هـــذا الأمل وانتظارنا له هـــو حقنا وواجبنا ومقتضى إيماننا. ولكن من اللازم علينا أثناء اســـتعمال هذا الحق والإيفاء بهذا الواجب أن نراجع ماضينا المجيد باســـتمرار، ونلجأ إلى قيمنا التي جعلت أمسنا زاخرًا بالعظمة. فعندما حقق الغرب نهضة كهذه في مســـيره نحو المدنية الحاضرة، التجأ إلى المسيحية واتّخذ اليونانية مثالاً وتزاوج مع الرومانية القديمة. نرى أشـــباه هذه الأســـس في الحضارات الأخرى في كل زمان. إذن سنلجأ نحن أيضًـــا إلى ماضينا وجذور معانينا ونقتبس من مثُلنا الروحية التي لم يتكدر صفاؤها بتعاقب الزمان. وســـنأخذ من إبداعات عصورنا البيضـــاء التي نراها الفصول الزمنيـــة الذهبية ومصدر فخرنا الأبدي، من الفكر الفلســـفي إلى الحقيقة الصوفية، ومن طبيعة متلقيات الدين المستقرة إلى بعده الأخلاقي... وســـنزيد بغزل النقوش على أردية مرفلة تسربل المستقبل. في هذه النقوش يتجاور "مولانا جلال الدين الرومي" مع "التفتازاني"، ويســـجد "يونس أمْرَهْ" مع "مَخْـــدوم قُولي"، ويضمّ "فضولي" إلى صدره "محمد عاكف". ويقف "الأمير أُولـــوغ" تحية لـــ"أبي حنيفة"، ويجلـــس "الخواجة الدهّاني" قبالة "الإمـــام الغزالي"، ويلقي "ابن عربي" وردة على "ابن سينا"، ويفيض "الإمام الرباني السرهندي" ببشـــرى "بديع الزمان النورْسي"... يتوحد عمالقة الأفكار لهذا الماضي العظيم بقاماتهم العملاقة، فيهمســـون في آذاننا طلاسم الخلاص والانبعاث.

المأمول أن نكتشف الشـــعور والفكر والمنهج والفلسفة التي تجمع كل هذه، وأن نجد أســـلوبنا السماوي والخالد. من أجل ذلـــك، أرى -قبل كل شـــيء- أن نعيد النظـــر في طرقنا التي نسلكها، وأن نجدّد إعمارها.

فمن الأسس المهمة لنهضتنا: إلهام العشق والشوق وبَرَكتهما؛ ومتانة "العقل والمنطق" ورصانتهما اللتان تبعثان الأمان؛ واستقرار وإنســـانية الحرية والعودة إلى الذات؛ والبُعد التجريديّ والعمق والدقّة، ومحور المنطق، وروح الوحي في فنّنا وفلسفتنا.

محركات الانبعاث

وفي الطريق نحو هذا التجدد، جعل رضا الله غاية الآمال، وتفضيل الروح على البدن، وجعل النفس تحت إمرة القلب؛ محركٌ أساسي لتفعيل مشاعر الشعور بالواجب.. وحب إنساننا وأوطاننا حرصٌ لا يســـتغنى عنه.. والأخلاقية زادٌ حيويٌّ في المسير لا يترك أبدًا.. والكائنات والإنسان والحياة: كتابٌ محفوفٌ بالأسرار لا يُكفُّ عن نبشه بمختلف أبوابه وفصوله تحت منشور القرآن البلوري.. والإنسان بســـجاياه وقيمه البشرية الحقيقية مصدرٌ مهمّ للقوة.. وكون الطرق الموصلة إلى الهدف والغاية -متناسبًا مع حقانيتهما ومُقَدَّسيتهما- في محور القرآن والسنة، ضمانٌ للثبات على النهج الصحيح.

وإن أمورًا يمكن أن نســـميها بوصفة طبّية لخلاصنا، مثل: أن نهتم بمســـتقبل وطننا وإنساننا، ونجهد في تغيير مصيرنا الذي ساء منذ قرون، ونحيي أجســـادنا بالروح الذي يهدف عجن مجتمعنا وتشـــكيله، ونفتح صفحة تاريخية نقية لأمتنا... هي شـــيء من الأســـس لحضارة ورؤيا تجددية تفوق المدن الفاضلة. وسنعرض هذه الأسس بشيء من التفصيل في فصل يأتي. ■

(*) الترجمة عن التركية: عوني عمر لطفي أوغلو.

لغة العرب أم لغة القرآن

أ.د. خالد الصمدي*

أربعة مواقف متباعدة في الزمان والمكان وحّدها الفكرة والعبرة، وشكلت صورة مكتملة تسمح باستنتاجات وخلاصات جيدة تستند إلى واقع الممارسة في تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بالعربية من طرف مدرّسي وموجّهي هذه المادة في البلاد غير العربية، كما تستند إلى معايشة ميدانية في دورات تدريبية أُقيمت ببعض هذه البلدان.

أول هذه المواقف ذاك المشهد الرائع الذي لن ينساه طلبة كلية الآداب بتطوان بالمملكة المغربية سنة ١٩٩٣ حين أعلن مستشرق روماني جاوز السبعين من عمره إسلامَه بمدرج العلامة "عبد الله كنون" مقتنعا بعظمة القرآن الكريم، وهو الذي اشتغل به وعايشه ثلاثين سنة يحاول ترجمته، وأقرّ في نهاية الأمر أن ذلك مستحيل، معززا استنتاجه بشواهد علمية. وقد استمع إلى نتائج وخلاصات جهوده، وخلاصات جهود أكثر من عشرين باحثا ومترجما شاركوا في الندوة الدولية في موضوع ترجمة معاني القرآن الكريم التي نظمت بالكلية، وانتهى التفكير بالرجل إلى أن نقر في ليلة من ليالي الندوة نقرات خفيفة على باب غرفة الدكتور فاروق حمادة بالفندق في غسق الليل، سائلا عن طريقة الدخول في الإسلام، وبقي الرجل مشدوها أمام بساطة الإجراءات التي لا تتعدى غسلا مسنونا والنطق بالشهادتين، وفي فرح طفولي سارع الشيخ إلى غرفته ولم يغمض له جفن ليلتها فرحًا بعد أن نطق بالشهادتين، واختار لنفسه من الأسماء "البشير" وبات ليلته الأولى مسلما عن اقتناع، وكان أن زف الخبر للحاضرين صباحا في الجلسة العلمية الأولى من اليوم الثالث للندوة، تحت أصوات مكبرة وحالات من التأثر والفرح ظاهرة.

أما الموقف الثاني فقد جرى بأقاصي بلاد الله بعاصمة دولة "قِرغيزسْتان" سنة ١٩٩٧ وفي مسجد عظيم البناء والزخرفة بالعاصمة "بِيشْكك". هذا البلد (لمن لا يعرفه) ذو أغلبية مسلمة بنى أهله ألف مسجد في جميع أنحاء البلاد في ظرف خمس سنوات من الاستقلال، بعد أن كان الشيوعيّون قبل الاستقلال لا يسمحون ببناء أيّ مسجد جديد، بل ولا يسمحون حتى بترميم

القائم منها والذي أصبح آيلا للســـقوط. وسمعتُ من ابن مفتي البلد وقتها أنّ السلطات كانت تمنع من يقل سنه عن الأربعين من الذهـــاب إلى صلاة الجماعة، وكان ابن المفتي وبعض من صحبه يتسللون إلى المسجد في غسق الليل ليأخذوا اللغة العربية والعلوم الإســـلامية عن الإمام الذي لم يكن سوى أبيه المفتي الذي أصبح اليوم طاعنا في السن.

شرّفني هذا الابن وبحضور أبيه شـــاهد العصر، الحاضرِ بين المصلين في مكان خـــاص به، بإلقاء كلمةٍ في المصلين قبل خطبة الجمعة، فسررت بذلك، والتزم فضيلته بالترجمة، وما إن شرعت في حمـــد الله والصلاة على محمد بن عبـــد الله ﷺ باللغة العربية حتى فوجئت بعشرات العيون تذرف الدموع، ولما أتممتُ كلمتي ســـألت فضيلة المفتي عن ســـر ذلك فقال لي: "إن هؤلاء حين يســـمعون أحدا يتكلم اللغة العربية فـــإن أعينهم لا ترى فيه إلا صحابيا جليلا قدم للتو من أرض الرســـالة، وربما يتخيلون من فرط الشوق أن يدَه لامست يد رسول الله ﷺ". ثم أردف قائلا: "ثم إنهم يقولون إنكم معشـــر العرب إن لم تقوموا بواجبكم في نشر الإســـلام ليعذبنكم الله تعالى مرتين، أولاهما لأنكم موقنون برســـول بعث منكم وبين أحضانكـــم، والثانية لأنكم تقرؤون القرآن بلغته التي أُنزل بها وبدون واسطة وهو ما يتيح لكم فهمه وتدبره حين يحرمون هم من ذلك".

وقد تركتُ بهـــذا البلد رجلا مســـلما متقاعدا من الجيش الروسي اشـــتغل مستشارا عسكريا في ســـوريا في السبعينات، ويدرس اللغة العربية ســـاعتها بجامعة قِرغيزستان، يشتغل بترجمة معاني القرآن الكريم إلى اللغة القِرغيزية، وأهداني مشـــكورا جزءً من هذا العمل، ولســـت أدري هل أتَمّه أم لا، وكل رجائه أن تسارع منظمة إسلامية إلى طبع عمله عند الانتهاء منه، أسأل الله تعالى أن يحقق أمله.

أما الموقف الثالث فهو حضـــوري لحلقة نقاش علمي عالي المســـتوى بين علماء الفقه والشـــريعة والحديث والقرآن الكريم بـــ"داكا" عاصمة "بنغلادش"، المشـــاركين في الدورة التدريبية الوطنية في بناء مناهج التربية الإســـلامية الـــتي تعقدها المنظمة الإســـلامية للتربية والعلوم والثقافة "إيسسكو"، وجمعية الدعوة الإسلامية العالمية في الفترة الممتدة سنة ٢٠٠٤. وقد تركز النقاش في موضوع شـــائك يقول: ما الأكثر فائدة في التعامل مع القرآن الكريم في البلدان غير الناطقة بالعربية؟ هل ترجمته إلى لغة البلد؟ أم تعلم اللغة العربية؟ وأجمع المشاركون بعد نقاش مستفيض إلى أن المسلك الرشيد هو تعلم اللغة العربية لأنها لغة الوحي، ورغم أن المسألة مكلفة جهدا، وبطيئة وقتا إلا أنها في نظرهم أبقى أثرا، دون إنكار فائدة الترجمة لكنها دون الخيار الأول أهمية.

أما الموقـــف الرابع فهو حالة الانتظار القاســـي الذي فصل بيني وبـــين زميلي الدكتور رشـــدي طعيمة خبـــير تعليم اللغة العربيـــة للناطقين بغيرها بباب الجامعة، حين كنا في زيارة علمية للجامعة الإســـلامية العالمية بماليزيا سنة ٢٠٠٤، الذي استأذنني في زيارة خاطفة لأحد الأســـاتذة الباحثين المصريين في قســـم اللغـــة العربية بالجامعة، وبعد طـــول انتظار قررت الانطلاق في رحلة البحث عن هذا القسم، وبجهد جهيد في ردهات وبنايات الجامعة الزرقاء المترامية الأطراف وســـط غابة استوائية، وفي ظل جهلي باللغـــة الإنجليزية أو المالاوية لغـــتي التخاطب بالجامعة، واختلاط الجنســـيات، ساقني القدر إلى مكتب فاخر كتب على بابه "قســـم لغة القرآن". وقفتُ مشدوها أمام هذا الاسم الرائع الذي جَعل مساحةَ اللغة العربية تعادل مساحة الوحي، لا تحدّها قومية ولا حدود جغرافية. فســـاح عقلي في فضاء لامتناه كما لا يتناهـــى خطاب الوحي في الزمان والمكان، ولم أســـتفق من هذه اللذة المعرفية إلا على الصـــوت الجهوري للدكتور طعيمة وهو يفتح الباب مودّعا رئيس القســـم الذي كان بالمناسبة أحد طلابه بالجامعة. قال صديقي الدكتور رشـــدي: "عذرا صديقي فقد عانيتَ في البحث عن القســـم كما عانيت -ولا شك- في البحث عني، فقد اكتشفتَ أنه لا يوجد بهذه الجامعة "قسم اللغة العربية"، قلت: "بالعكس أشـــكرك على هذا التأخر الذي قادني إلى اكتشـــاف هذه الفائدة الرائعة"، ثم خاطبت رئيس القســـم قائلا: بالله عليكم كيف اخترتم هذا الاسم على غير عادة الأسماء المعروفة في الجامعات العالمية "قســـم اللغـــة العربية". قال: "هذا يدخل ضمن الإســـتراتيجية التربوية للجامعة، ويكفي أن تعلموا أن هذا الاســـم كان وحده كافيًا كي يُقبل الطلاب على القسم بنســـب تضاعف الإقبال على الأقسام الأخرى، لأنهم يدرسون هنالك لغات قومية ويدرســـون هنا لغـــة القرآن خطابَ الله إلى كل القوميات.

الخلاصات والاستنتاجات

إن هذه المواقف الأربعة تسمح بالخلاصات والاستنتاجات التالية

التي آمل أن تشكل مداخل رئيسية لإعادة النظر في جهود تعليم اللغة العربية وترجمة معاني القرآن الكريم:

١–لا تغني ترجمة القرآن الكريم إلى أي لغة عن سعي المسلمين من أهلها إلى تعلم اللغة العربية، لأن قراءة ترجمة معاني القرآن الكريم، لا تعدو أن تكون قراءة في فهم المترجم للقرآن لا لنصه. والترجمة مهما بلغت دقتها لن تنطق بما ينطق به القرآن فعلا. وإن في القرآن الكريم مفاهيم ومصطلحات يعجز المترجمون عن إيجاد مقابلها في ترجمتهم فيخطئ بعضهم في ترجمتها، ويتوقف الآخرون لينقلوها بلفظها نطقا دون ترجمة، وكثير منها يتعلق بعالم الغيب مما لا يسعف المترجم في فهمها إلا إيمانه بالقرآن الكريم كأسماء الله وصفاته والجنة والنار وصفاقما وعالم الجن والملائكة ومعجزات المرسلين وغير ذلك، مما يبرز الإعجاز القرآني في صورة جديدة دفعت المستشرق الروماني إلى الإيمان بعد جهد كبير وبحث عميق.

٢–إن المنظمات والهيئات الدولية المهتمة بنشر القرآن الكريم، بذلت مجهودات كبيرة في ترجمة معاني القرآن الكريم إلى جلّ لغات العالم، وعملت على طبعها وتوزيعها، إلا أننا نعتقد أن هذه الجهود ينبغي أن تدعم بنشر تعليم اللغة العربية في صفوف غير الناطقين بها، علمًا بأن الملايين من مسلمي شبه القارة الهندية وبلاد الأتراك، وجنوب شرق آسيا مثلا، يحفظون القرآن الكريم عن ظهر قلب دون أن يفقهوا منه حرفا واحدا، ولا أن يكتبوا كلمة واحدة، ومنهم من يقرأ القرآن بالقراءات السبع، ويحفظ الصحيحين، ومع ذلك فهم محرومون من نعمة التدبر والفهم والتفقه، ولذلك سادت بينهم الخرافات والأباطيل المنسوبة إلى الإسلام رغم عنايتهم الفائقة بحفظ القرآن والحديث ولا سبيل لربطهم بالقرآن الكريم فهما وتدبّرا إلا بتعلم اللغة العربية.

٣–إن المسلم الذي لا يملك اللغة العربية يظل متلقيا ومقلدا بإطلاق، ولا يمكنه أن يفهم القرآن الكريم ولا الأحكام الشرعية من مختلف مصادر الفقه الإسلامي إلا بواسطة، ويبقى حاجز اللغة بينه وبين الترجيح بين الفتاوى واختيار الأيسر منها، كما يظل حاجزا بينه وبين التجول الواسع في التراث الإسلامي وقراءته قراءة واعية. وهذه الوضعية هي التي جعلت كثيرا من مسلمي أوروبا رهيني قراءة معينة للإسلام، سواء لجماعة معينة أو لطريقة معينة، دون أن يبذل مجهودا لكسب مساحة واسعة من الحرية في قراءة الإسلام من مصادره الأصلية، والاطلاع على الاجتهادات المختلفة، مع اتخاذ القرار في التمثل والاتباع، ولن تتاح أمامه مثل هذه الفرص إلا بتعلم اللغة العربية.

٤–تفشل خطط تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها لأنها تقدم هذه اللغة في بعدها القومي، فتحصر أهدافها في الاطلاع على الحضارة العربية وعادات وتقاليد شعوبها، ويغيب البعد العالمي لهذه اللغة باعتبارها لغة الوحي المنزل للعالمين، والواقع أن نشر هذه اللغة يتعدى البعد القومي ليكون الهدفُ الأسمى هو الاطلاعَ على تعاليم الإسلام باعتباره دينا هاديا ومخلّصا؛ فاللغة في هذه الحال نافذة الدين ومدخله، وفرق كبير بين أن تَربط لغةً مَا بحضارة قومية معينة، وأن تَربطها بدين ذي أبعاد عالمية يسعى إلى أن ينتشر بين الناس عن طريق الحوار والمجادلة بالتي هي أحسن.

٥–ينبغي أن تكون لغة تدريس مادة التربية الإسلامية في المدارس العربية في البلدان غير الناطقة بالعربية هي اللغةَ العربية، لأن في ذلك فائدتين: أولاهما فهم الإسلام من مصادره الأصلية، والثانية تقوية اللغة العربية. ونحن نعلم أن كثيرا من أبناء الجالية العربية في أوروبا لا يتكلمون اللغة العربية، ورغم ذلك تقدم لهم حصص التربية الإسلامية بلغة أجنبية، فيحرمون من فرصة لا تعوض للتمكن من اللغة العربية.

ينبغي أن تُستثمر الحاجة إلى التدين بالإسلام إلى تعلم اللغة العربية باعتبارها لغة الوحي تتجاوز البعد القومي بهدف خلق المسلم الحر الذي يحق له أن يبلغ يوما درجة الاجتهاد، أسوة بالعلماء المسلمين غير العرب الذين أسهموا بحظ وافر جاوز حتى العرب أنفسهم في اللغة والحديث والتفسير، وليس مثال سيبويه والبخاري ومسلم وغيرهم عنّا ببعيد.

والخلاصة: أن دعم جهود تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها له أثره البالغ في التعريف بالإسلام ونشره عند أهله من المسلمين غير العرب، ولدى باقي العالمين من غير المسلمين. وسيعزز ذلك كل الجهود المبذولة في ترجمة معاني القرآن الكريم إلى لغات العالم، شريطة أن ننظر إلى اللغة العربية في بعدها العالمي المستمد من عالمية الإسلام وأن نبذل مجهودات كبرى لننقلها من لغة العرب إلى لغة القرآن. ■

(*) رئيس المركز المغربي للدراسات والأبحاث التربوية الإسلامية / المغرب.



همس الورود

د. سعاد الناصر (أم سلمى)*

وِرْدة حمراء في وحدة الهمس،
تنمو، تصعد، نحو النجوم،
دغدغت الصمت الكئيب،
تنشر الفوح عبر الرمال،
حلم الصفاء،
فتحت لي الأبواب أنا الوردة الحمراء،
والتقى همس الورود،
في شبابيك الحنين..
أحداق الفجر النحيب،
يلقي الهم القديم،
فليرحل الألم... لن يعود...
هذي أنا...
ورؤاي التي حطمت قيد الصمت،
عن يقين ننسج الصوت العالي،
من وحدة الهمس،
فليرحل القهر لن يعود...
تغرق الوردة،
تغرق في حشو الأسى،
ما أوحش الدرب إذا تاه الإنسان وخان!
يطوي مسافات اللذة البائسة،
أوراقا تبهت في طيف الأفول،
حتى انطوى السعد عبر الحصار،
يا سامع الهمس في عمق البحر!
إني لا أدري أن يوم الخلاص،
يوم يرمي الغافلون عناء البيغاء...

وردة حمراء في وحدة الهمس
زحفت فوق الأكف الشائكة...
لكن لن تجرحها،
عن يقين ترفع الحمرة
عاليا عاليا،
فليرحل القهر لن يعود...
وليمضي نحو شطآن الاغتراب،
ولترفع الوردة،
عشق الرؤيا راية،
راية البوح الخالدة،
تفرش الظل قطعا للأسر...
وردة حمراء في وحدة الهمس،
تنمو، تصعد، نحو النجوم،
وتدق في جوف الأرض البذور،
ومضات تجتر الظلال،
وتزيح الرماد...
لن يدب اليأس في قلمي،
عجبا... ولماذا أعجب؟
وأنا نبتة الغصن السعيد،
لبّينا نداء هو الحياة،
فتعالت الروح ولم يقطع الجسد الوصل
بالأرض...

(*) جامعة عبد المالك السعدي، تطوان/ المغرب.



كالبحر ليكن صدرك... بالإيمان مترعا...
وبمحبة الإنسان مفعما... وللقلب الحزين مأوى وموئلا...

***



كيف يتنفس الكون؟

وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ۞ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ

(التكوير: ١٧-١٨)

أ.د. زغلول النجار*

﴿وَاللَّيْلِ﴾: "الليل" واحد بمعنى الجمع، وواحدته "ليلة". "الليل" هو الفترة الزمنية من اليوم الممتدة من مغرب الشمس إلى طلوع الفجر الصادق كما حدده القرآن الكريم. والواو في قوله تعالى ﴿وَاللَّيْلِ﴾ هي واو القسم.

﴿إِذَا عَسْعَسَ﴾: "العسعسة" و"العسعاس" رقة الظلام في طرفي الليل، وعلى ذلك فإن من معاني قوله تعالى ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ﴾ أي إذا أقبل وأدبر وذلك في أول الليل وآخره.

﴿وَالصُّبْحِ﴾: "الواو" هنا للقسم أيضا، و"الصبح" هو أول النهار، ووقت احمرار الأفق بحاجب الشمس ؛ أي بما يسبق طلوع الشمس من الأشعة تحت الحمراء. و"الصبح" ضد المساء.

﴿إِذَا تَنَفَّسَ﴾: أي استنشق الهواء وأخرجه، و"النَّفَسُ" واحد "الأنفاس" وهي الرياح الداخلة والخارجة إلى الرئتين ومنها، وبدونها تنقطع الحياة؛ يقال "تنفس" الرجل أي استنشق الهواء وأخرجه، و"تنفس" الصعداء أي فرج الله عنه كربه حتى استراح، وكل ذي رئة "مُتَنَفِّس" و "تَنَفَّس الصبح" أي تَبَلَّجَ، و"تَنَفُّس النهار" عبارة عن توسّعه أي امتداده إلى الظهيرة.

من الدلالات العلمية للآيتين الكريمتين

أولاً: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ﴾: قيل في الفعل "عسعس" إنه مكون من مقطعين: "عس، عس" وهو من أفعال الأضداد أو من الأفعال المشتركة في المعنى لأن من معانيه: أقبل ظلامه أو أدبر. وفي القسم بإقبال الليل وإدباره إشارة ضمنية رقيقة إلى كل من كروية الأرض، ودورانها حول محورها أمام الشمس. فلو لم تكن الأرض كرة، ولو لم تكن تلك الكرة تدور حول محورها أمام الشمس ما أقبل ظلام الليل ولا أدبر. وهذه الإشارة الضمنية الرقيقة إلى هاتين الحقيقتين العلميتين من حقائق الأرض وهما كرويتها ودورانها حول محورها أمام الشمس، هي من الدلالات القاطعة على صدق القرآن الكريم، وعلى سلامته من أي نقص، خاصة وقد نزل في زمن سادت الخرافات والأساطير، وغلبت على أذهان الناس، فرأوا في الحركة الظاهرية للشمس أن الأرض ثابتة والشمس هي التي تدور من حولها، ورأوا في أبعاد الأرض الكبيرة شهادة على انبساطها وعدم تكورها. و لم تثبت كروية الأرض ودورانها حول محورها أمام الشمس إلا بعد تنزل القرآن الكريم بعدد من القرون المتطاولة، وهذا السبق القرآني بأعداد من الحقائق

العلمية هو ما يعرف باسم "الإعجاز العلمي في القرآن الكريم".

ثانياً: ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾: التنفس عملية حيوية يأخذ فيها كل من الإنسان والحيوان غاز الأكسجين من الهواء الجوّيّ ليتم بواسطته أكسدة الدم الفاسد المتحرك إلى الرئتين، وذلك في عملية "الشهيق" التي تتمدد فيها الرئتان تمدداً ملحوظا. ثم يخرج الغازات السامة من مثل غاز ثاني أكسيد الكربون ومعه بعض بخار الماء وذلك في عملية "الزفير" التي تنكمش فيها الرئتان انكماشا واضحًا. وهذه الآية الكريمة تشبّه عملية تمدد نطق الغلاف الغازي للأرض مع بدء طلوع الشمس حتى غروبها، ثم انكماشها مع غياب الشمس إلى طلوع الفجر الصادق بعملية تنفس الأحياء من أمثال كل من الإنسان والحيوان. وهو تشبيه معجز، خاصة وأن نُطُق الحماية في الغلاف الغازي للأرض لم تكتشف إلا في العقود المتأخرة من القرن العشرين.

نطاق الغلاف الغازي للأرض

تحاط الأرض بغلاف غازي يقدر سمكه بعدة آلاف من الكيلومترات، ويتناقص فيه الضغط مع الارتفاع من كيلو جرام واحد على السنتيمتر المكعّب تقريبا (١,٠٣٣٦ كج/سم٣) عند مستوى سطح البحر إلى قرابة الصفر عند ارتفاع ستين كيلومترًا فوق مستوى سطح البحر.

وعموما تحتوي المسافة من سطح البحر إلى ارتفاع ٣٥ كيلومترا على حوالي ٩٩٪ من كتلة الغلاف الغازى للأرض المقدّرة بحوالى خمسة ألاف مليون مليون طن. ويقسم هذا الغلاف الغازي للأرض على أساس من درجة حرارته إلى عدة نطق من أسفل إلى أعلى على النحو التالي:

١- نطاق التغيرات الجوية (The Troposphere): ويمتد من مستوى سطح البحر إلى ارتفاع (١٦كيلومترا) فوق خط الاستواء، ويتناقص سمكه إلى حوالي عشرة كيلومترات فوق قطبَي الأرض، وإلى حوالي (٧-٨ كيلومترات) فوق خطوط العرض الوسطي. وعندما تغيب الشمس فوق تلك المناطق يتقلص هذا السمك تقلصا ملحوظا. ويحتوي هذا النطاق على حوالي ٨٠٪ من كتلة الغلاف الغازي للأرض، وعلى جميع ما به من بخار ماء. وعندما يتحرك الهواء من خط الاستواء في اتجاه القطبين فإنه يهبط فوق هذا المنحنى الوسطي، فتزداد سرعته. ثم إن حركة الأرض في دورانها حول محورها من الغرب إلى الشرق تُجبر كتل الهواء على التحرك تجاه الشرق بسرعة فائقة على هيئة تيار هوائي يعرف باسم التيار النفاث. وينخفض الضغط الجوّي في قمة نطاق الرجع إلى عُشر ضغطه عند مستوى سطح البحر، كما تنخفض درجة الحرارة في هذا النطاق باستمرار مع الارتفاع بمعدل ١٠ درجات لكل كيلومتر ارتفاع إذا كان الهواء جافًا، و٦,٥ (ست ونصف) درجة للهواء المشبع ببخار الماء حتى تصل إلى (-٦٠°م) في قمته فوق خط الاستواء، وذلك نظرًا للابتعاد عن سطح الأرض الذي يعمل على تدفئة هذا النطاق بعد غياب الشمس. فسطح الأرض يمتص حوالي ٤٧٪ مما يسقط عليه من أشعّة الشمس، فترتفع درجة حرارته أثناء النهار. وعند غياب الشمس تبدأ صخور الأرض في إعادة إشعاع الحرارة التي امتصتها على هيئة أشعة تحت حمراء إلى الغلاف الغازي للأرض خاصة إلى ما به من جزيئات ثاني أكسيد الكربون وقطيرات الماء المعلقة في السحب. فترد السحب ٩٨٪ من تلك الأشعة على هيئة "رجع حراري" لولاه لتجمدت الأرض بما عليها من مختلف صور الحياة بمجرد غياب الشمس. ويَحدّ هذا النطاقَ من أعلى سطحٌ افتراضي يعرف باسم سطح توقف نطاق المناخ، ينتهى عنده فيض الحرارة المنسابة من سطح الأرض.

٢- نطاق التطابق أو التطبق (The Stratosphere): ويمتد من فوق نطاق التغيرات الجوية إلى حوالي ٥٠ كم فوق مستوى سطح البحر، وترتفع فيه درجة الحرارة من -٦٠°م إلى الصفر المئوي في قمته. وفي قاعدة هذا النطاق توجد طبقة أو نُطيق الأوزون (Ozonosphere)، وتمتد من ارتفاع ٢٠ كيلومترا حتى ٤٥ كيلومترا فى المتوسط. وينتهي هذا النطاق عند سطح افتراضي ينتهي عنده التأثير الحراري لطبقة الأوزون، ويعرف باسم خط توقف نطاق التطبّق.

٣- النطاق المتوسط (The Mesosphere): ويمتد من فوق خط توقف نطاق التطابق إلى ارتفاع يتراوح بين ٨٠ كم - ٩٠ كم فوق مستوى سطح البحر، وتنخفض فيه درجة الحرارة إلى - ١٢٠°م.

٤- النطاق الحراري (The Thermosphere): ويمتد من فوق النطاق المتوسط إلى عدة مئات من الكيلومترات فوق مستوى سطح البحر، وترتفع درجة الحرارة فيه باستمرار إلى ٥٠٠°م عند ارتفاع ١٢٠ كم فوق مستوى سطح البحر، وتبقى

ثابتة عند هذا الحد إلى أكثر من ٦٠٠ كم ثم تقفز إلى ١٥٠٠ºم في فترات نشاط البقع الشمسية. وفي أجزاء من هذا النطاق تتأين جزيئات الغلاف الغازي بفعل أشعة الشمس، خاصة الأشعتين السينية وفوق البنفسجية. ولذا يعرف باسم النطاق المتأين (The Ionosphere).

٥- النطاق الخارجي (The Exosphere): يعرف الجزء الخارجي من النطاق الحراري باسم النطاق الخارجي ويقل فيه الضغط والحرارة بشكل ملحوظ، حتى تصل إلى قرابة الصفر المطلق، ولا يحده إلا نهاية النطاق المغناطيسي للأرض.

٦- النطاق المغناطيسي للأرض (The Magnetosphere): ويمتد من مستوى سطح البحر إلى عشرات الآلاف من الكيلومترات فوق هذا المستوى. وعند قمّته تتوقف آثار مغناطيسية الأرض وينتهي الغلاف الغازى للأرض الذي هو خليط من غازات الأرض ودخان السماء. وهذا النطاق يحمي الأرض من الأشعّة الكونية المتّجهة نحو الأرض، وما يمسك به من هذه الأشعة يكون أحزمة الإشعاع. وفي النظام المغناطيسي يتضاءل الضغط، وترتفع درجات الحرارة بشكل كبير، ويصل متوسط ارتفاع هذا النطاق إلى (٤٦,٠٠٠-٦كم) فوق مستوى سطح البحر.

٧- أحزمه الإشعاع (The Radiation Belts): وهي عبارة عن زوجين من هلالية الشكل التي تحيط بالأرض، مع زيادة ملحوظة في السمك حول خط الاستواء، ورقة شديدة عند القطبين. وهذه الأحزمة مليئة بالبروتونات والنيترونات وهي مشحونة أساسا بالبروتونات والإليكترونات التي يصطادها المجال المغناطيسي للأرض من الأشعّة الكونية المتساقطة من الفضاء الكوني فى اتجاه الأرض. ويتركز الزوج الداخلي من هذه الأحزمة حول ارتفاع (٣٢٠٠ كم) فوق مستوى سطح البحر، وهو مشحون أساسا بالإليكترونات، بينما يتركز الزوج الخارجي من هذه الأحزمة حول ارتفاع (٢٥٠٠٠ كم) فوق مستوى سطح البحر، ويفصل هذين الحزامين منطقة خالية من الإشعاع.

مكونات الغلاف الغازي

هذه النطق المكونة للغلاف الغازي للأرض تبدأ في التمدد مع بزوغ الفجر الصادق لتصل إلى أقصى درجات تمددها في وقت الظهيرة، ثم تبدأ في الانكماش حتى الغروب لتصل إلى أدنى سمك لها مع دخول الليل. وهذه الحركات من التمدد والانكماش تشبه عمل الرئة في مرحلتَي الشهيق والزفير ولذلك عبر عنها القرآن الكريم بالتنفس فقال تعالى ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾.

ونطق الغلاف الغازي للأرض لم تكتشف بالكامل إلا بعد ريادة الفضاء في بدايات النصف الثاني من القرن العشرين (سنة ١٩٥٨م)، و لم يثبت تمددها مع طلوع الشمس وانكماشها عند الغروب إلا بعد قياسات عديدة استغرقت جهود مئات من العلماء لعشرات من السنين حتى تأكدوا من ذلك.

وسَبْق القرآن الكريم بالإشارة إلى هذه الحقيقة الكونية من قبل ألف وأربعمائة سنة -حتى ولو جاء ذلك في مقام التشبيه- لممّا يشهد لهذا الكتاب الخالد بأنه لا يمكن أن يكون صناعة بشرية، بل هو كلام الله الخالق الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله، وحفظه بعهده الذي قطعه على ذاته العلية، في نفس لغة وحيه (اللغة العربية)، وحفظه حفظًا كاملا على مدى يزيد على أربعة عشر قرنا، وتعهد بهذا الحفظ تعهدًا مطلقا حتى يبقى القرآن الكريم حجة على الخلق أجمعين إلى قيام الساعة بأنه كلام رب العالمين في صفائه الرباني، وإشراقاته النورانية، وصدق في كل ما جاء به.

ويبقى هذا السبق القرآني بالعديد من حقائق الكون أيضا حجة على الخلق أجمعين بصدق نبوة النبي والرسول الخاتم ﷺ. وذلك لأن العلوم المكتسبة لم تصل إلى معرفة نُطُق الغلاف الغازي للأرض بالكامل إلا في النصف الأخير من القرن العشرين، و لم يعلم شيئًا عن تمددها مع طلوع الشمس وانكماشها عند الغروب إلا بعد مجاهدة العديد من العلماء لعشرات من السنين إلى نهاية القرن العشرين. وفى هاتين الآيتين الكريمتين يبلغ الإعجاز اللغوي والعلمي مداه في اختيار لفظة ﴿الصُّبْحِ﴾ للتعبير عن هذه الظاهرة الجوية فقال ربنا تبارك وتعالى: ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾.

وذلك لأن تمدد نطق الغلاف الغازي للأرض يكون في أعلى درجاته مع بداية الصبح إلى الظهيرة، ثم يأخذ في التناقص والانكماش بعد ذلك إلى لحظة الغروب حين يصل سمك هذه النطق إلى أدنى مستوياته. وهذا يدل على الدقة العلمية البالغة في القرآن الكريم والدالة على صدق وحيه وعلى صدق النبي الخاتم الذي تلقاه صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن تبعه ودعا بدعوته إلى يوم الدين. ■

(*) أستاذ علوم الأرض ورئيس لجنة الإعجاز العلمي بالمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية / مصر.





الأستاذ النورسيّ

والبعد الجمالي في أسلوبيات القرآن الكريم

أ.د.عماد الدين خليل*

االإعجاز البلاغي أو البياني أو الأدبي أو اللغوي أو الفني في القرآن الكريم ينطوي كما هو معلوم على جمالياته الخاصة. وقد كتب في ذلك الكثير، منذ فجر الدراسات القرآنية وحتى اللحظات الراهنة. وهو مع ذلك يتطلب المزيد بالنسبة لكتاب ليس كالكتب وظاهرة جمالية فريدة لا تنقضي عجائبها.

بديع الزمان سعيد النورسي أدلى بدلوه هو الآخر، وكان هذا منطقيا تماما بالنسبة لرجل تدفقت رسائله المائة والثلاثون من نبع كتاب الله المترع عذوبة وسخاء، ونسجت كلماتها على هديه.

وهو منطقي مرة أخرى لأن خلفيات الفكر النورسي تنبض بعشق الجمال، وتراه انعكاسا مدهشا للإبداع الإلهي في الكون.

وهو (أي النورسي) في وقفتيه إزاء كتابَي الكون المنظور والمقروء، كان يولي اهتماما ملحوظا ومؤكدا لمتابعة الملامح والتشكيلات والقيم والمفردات الفنية والجمالية هنا وهناك. إنه مهندس معماري من طراز أول، وإن المرء ليلمس وهو يجتاز رسائله كافة كيف أن رؤيته للعالم والأشياء والكلمات هي رؤية مهندس يلمح ببصيرة ثاقبة وخبرة عميقة عناصر التوازن والتناظر في معمار الكون الكبير والكلمة المعبرة.

عالج النورسي جلّ المسائل والقيم الفنية والجمالية التي عني بها القدماء والمحدثون في دراساتهم البلاغية والأدبية والفنية واللغوية لكتاب الله، بدءً من الجاحظ والزمخشري والسكاكي والجرجاني وصولا إلى الخولي وسيد قطب وبنت الشاطئ وعشرات بل مئات غير هؤلاء وهؤلاء... وهو لم يكد يترك واحدة من هذه القيم الفنّية دون أن يقف عندها متأملا، مدققا، مستدعيا الشاهد الذي يؤكدها.

القيم أو المعطيات البلاغية

ينطلق النورسي في تعامله مع "البلاغة" القرآنية وإعجازها، من الخصائص التي أكدها القدماء والمحدثون: جزالة النظم وحسن متانته، وبداعة الأسلوب وغرابته وجودته، وبراعة البيان وتفوقه وصفوته، وقوة المعاني وصدقها، وفصاحة الألفاظ وسلاستها،[١] مؤكدا أن "البيئة" التي تنزَّل فيها القرآن كانت في أشد حالات فصاحتها الفطرية وبلاغتها المطبوعة تألّقا وتمكنا.

لقد عُوّض العرب بغياب التدوين ذاكرة حادة، وسلامة في الأداء الشفاهي جعلتهم يتعاملون مع "الكلمة" في سويتها التي لا يشوبها دخل. ولقد عبّر شعرهم، ومعلقاتهم السبع التي وضعت على جدار الكعبة، عن المستوى "البلاغي" العالي الذي بلغوه. فلمّا تحداهم القرآن ليأتوا بمثله، أو بعشر سور من مثله، أو بسورة واحدة، وعجزوا عن الاستجابة، كان هذا بحد ذاته تأكيدا لمعجزة القرآن.[٢]

كان هناك كما يقول النورسي دافعان في غاية القوة لمعارضة القرآن والإتيان بمثله. أولهما: حرص الأعداء على معارضة كهذه، وثانيهما: شغف الأصدقاء بتقليده. والنتيجة: "لا شَيء". وأصبحت محاولة كمحاولة مسَيلمة الكذّاب -رغم أنه من أصحاب البلاغة- مثلا يتندر به المتندرون وصورة من صور الهذيان الذي لا يستحق الالتفات.

عناصر الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم

يبدأ النورسي بتحليل عناصر الإعجاز البلاغي الخمسة فيبدأ بالنظم هذا الذي وقف عنده طويلا في كتابه المعروف "إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز". ويضرب لذلك مثلا: عقارب الساعة العادّة للثواني والدقائق والساعات والتي يكمّل كل منها نظام الآخر "كذلك النظم في هيئات كل جملة من جمل القرآن، والنظام الذي في كلماته، والانتظام الذي في مناسبة الجُمل كل تجاه الآخر".[٣]

١-النظم

إن النورسي يوظف هنا بعض معطيات ما يسميه المحدثون بنظرية النظم التي بلغت على يد عبد القاهر الجرجاني أقصى حالات اكتمالها في كتابيه المعروفين "أسرار البلاغة" و"دلائل الإعجاز".. ويحاول متابعة الارتباط أو العلاقات الداخلية -إذا صح التعبير- في نسيج النص القرآني بين الكلمات والجمل والتعابير والأنساق، فيما عده البعض جهدا بنيويا بشكل من الأشكال.

وفي تفسيره لسورة البقرة في "إشارات الإعجاز" نفّذ النورسي محاولة تطبيقية لنظرية النظم هذه في بعض جوانبها، ولكنه في "الكلمات" يكتفي بشواهد محددة فحسب حيث لا يتسع المجال للاستفاضة. ومن هذه الشواهد تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ (الأنبياء:٤٦) حيث يقول: "هذه الجملة مسوقة لإظهار هول العذاب، ولكن بإظهار التأثير الشديد لأقله، ولهذا فإن جميع هيئات الجملة التي تفيد التقليل تنظر إلى هذا التقليل وتمده بالقوة كي يظهر الهول. فلفظ ﴿لَئِنْ﴾ هو للتشكيك، والشك يوحي القلة. ولفظ "مَسَّ" هو إصابة قليلة يفيد القلة أيضا. ولفظ ﴿نَفْحَةٌ﴾ مادّته رائحة قليلة، فيفيد القلة، كما أن صيغته تدل على واحدة، أي واحدة صغيرة، كما في التعبير الصرفي -مصدر المرّة- فيفيد القلة. وتنوين التنكير في ﴿نَفْحَةٌ﴾ هي لتقليلها، بمعنى أنها شيء صغير إلى حد لا يعلم فينكر. ولفظ ﴿مِنْ﴾ هو للتبعيض، بمعنى جزء، فيفيد القلة. ولفظ ﴿عَذَابِ﴾ هو نوع خفيف من الجزاء بالنسبة إلى النكال والعقاب، فيشير إلى القلة. ولفظ ﴿رَبِّكَ﴾ بدلا من القهار، الجبار، المنتقم، فيفيد القلة أيضا وذلك بإحساسه الشفقة والرحمة. وهكذا تفيد الجملة أنه إذا كان العذاب شديدًا ومؤثرا مع هذه القلة، فكيف يكون هول العقاب الآلهي؟! فتأمَّلْ في الجملة لترى كيف تتجاوب الهيئات الصغيرة، فيعين كلٌّ الآخَرَ، فكلٌّ يمد المقصد بجهته الخاصة".[٤]

ولا ينسى النورسي أن يشير إلى الأسباب التي قد تخلّ في الحالات الاعتيادية بقدرة الخطاب على الاحتفاظ بسلامة "نظمه" من الخلل والاضطراب. أما في كتاب الله فإن الإعجاز القرآني يعرف كيف يتمثلها ويطويها.

فهناك ما يقارب تسعة أسباب: "إذ إن القرآن المبين نزل في ثلاث وعشرين سنة نجما نجما لمواقع الحاجات نزولا متفرقا متقطعا، مع أنه يظهر من التلاؤم الكامل كأنه نزل دفعة واحدة.

وأيضا إنه نزل في ثلاث وعشـــرين سنة لأســـباب نزول مختلفة متباينة، مع أنه يظهر من التســـاند التام كأنه نزل لسبب واحد. وأيضا إنه جاء جوابا لأســـئلة مكرّرة متفاوتة، مع أنه يظهر من الامتزاج التام والاتحاد الكامل كأنه جواب عن ســـؤال واحد. وأيضـــا إنه جاء بيانا لأحكام حوادث متعـــددة متغايرة، مع أنه يبين من الانتظام الكامل كأنه بيان لحادثة واحدة. وأيضا إنه نزل متضمنا لتنـــزلات كلامية إلهية في أساليب تناسب أفهام مخاطبين لا يحصـــرون، ومن حالات من التلقـــي متخالفة متنوعة، مع أنه يبين من السلاســـة اللطيفة والتماثـــل الجميل كأن الحالة واحدة والفهم واحد، حتى تجري السلاســـة كالماء السلسبيل. وأيضا إنه جاء مكلما ومتوجها إلى أصناف متعددة متباعدة من المخاطبين، مع أنه يظهر من ســـهولة البيان وجزالة النظام ووضوح الإفهام كأن المخاطبين صنف واحد بحيث يظن كل صنف أنه المخاطب وحده بالأصالة. وأيضا إنه نزل هاديا وموصلا إلى غايات إرشادية متدرجـــة متفاوتة، مع أنه يبين من الاســـتقامة الكاملة والموازنة الدقيقة والانتظام الجميل كأنّ المقصد واحد. فهذه الأسباب مع أنها أسباب للتشويش واختلال المعنى والمبنى إلاّ أنها استخدمت في إظهار إعجاز بيان القرآن وسلاسته وتناسبه..".(٥)

٢- المعنى

المعنى هو العنصر الآخر في الإعجاز البلاغي للقرآن، يقول النورسي: "تصور نفســـك قبل مجيء نور القرآن، في ذلك العصر الجاهلي، وفي صحراء البداوة والجهل، فبينما تجد كل شيء قد أسدل عليه ســـتار الغفلة وغشيه ظلام الجهل ولف بغلاف الجمود والطبيعة، إذا بك تشـــاهد بصدى قوله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾(الحديد:١) أو ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾(الإســـراء:٤٤) قد دبّت الحياة في تلك الموجودات الهامدة أو الميتة بصدى ﴿سَبَّحَ﴾ و﴿تُسَـــبِّحُ﴾ في أذهان السامعين فتنهض مسبحةً ذاكرة لله. وإن وجه السماء المظلمة التي تستعر فيها نجوم جامدة، والأرض التي تدبّ فيها مخلوقات عاجزة، تتحول في نظر السامعين بصدى ﴿تُسَبِّحُ﴾ وبنوره إلى فم ذاكر لله، كل نجم يشعّ نور الحقيقة ويبـــث حكمة حكيمة بالغة. ويتحول وجه الأرض بذلك الصدى الســـماوي ونـــوره إلى رأس عظيم، والبر والبحر لسانَين يلهجان بالتسبيح والتقديس، وجميع النباتات والحيوانات كلمات ذاكرة مسبحة حتى لكأن الأرض كلها تنبض بالحياة".(٦)

إن معاني القرآن كلها، بفضاءاتها الفسيحة، يقدمها الخطاب القرآني للناس في كل زمان ومكان بأســـلوبياته المتميزة التي هي وحدها كفاء لمضامين هذا الخطاب.

٣- الأسلوب

وهذا ينقلنـــا إلى العنصر الثالث في الإعجاز البلاغي لكتاب الله: الأسلوب.. إنه غريب وبديع، كما هو عجيب ومقنع: "لم يقلد أحدا قط ولا يســـتطيع أحد أن يقلده. ولقـــد حافظ وما يزال يحافـــظ على طراوته وشبابيته وغرابته مثلما نزل أول مرة".(٧)

وفي مكان آخر يقف النورسي طويلا عند إحدى الخصائص الأســـلوبية للقرآن، تلك هي "جامعيته" المثيرة للدهشة "حتى إن ســـورة واحدة تتضمن بحر القرآن العظيم الذي ضمّ الكون بين جوانحـــه، وإن آية واحدة تضم خزينة تلك الســـورة، وإن أكثر الآيات -كل منها- كسورة صغيرة، وأكثر السور -كل منها- كقرآن صغير. فمن هذا الإيجاز المعجز ينشأ لطف عظيم للأرشاد وتسهيل واسع جميل. لأن كل إنسان على الرغم من حاجته إلى تلاوة القرآن كلَّ وقت فإنه قد لا يتاح له تلاوته.. فلكي لا يحرم أحد من القرآن فإن كل سورة في حكم قرآن صغير. بل كل آية طويلة في مقام ســـورة قصيرة، حتى إن أهل الكشف متّفقون أن القرآن في الفاتحة والفاتحة في البســـملة. أما البرهان على هذا فهو إجماع أهل التحقيق العلماء".(٨)

٤- اللفظ

أما العنصر الرابع فهو "اللفـــظ". "نعم، إن القرآن كما هو بليغ خارق من حيث أسلوبه وبيان معناه، فهو فصيح في غاية السلاسة في لفظـــه. والدليل القاطع على فصاحته هو عدم إيراثه الســـأم والملل، كما أن شـــهادة علماء البيـــان والمعاني برهان باهر على حكمة فصاحته".(٩) ويمضي النورســـي إلى القول بأنه "لو كرر ألوف المرات فإنه لا يورث سأما ولا مللاً، بل يزيد لذة وحلاوة. ثم إنه لا يثقل على ذهن صبي بســـيط فيستطيع حفظه، ولا تسأم منـــه أُذن المصاب بداء عضال الذي يتأذى بأدنى كلام، بل يتلذذ به وكأنه الشراب العذب".(١٠)

ويبحث النورســـي عن الأســـباب وراء تألق اللفظ القرآني ويقـــول: "إن القرآن قوت وغذاء للقلوب، وقوّة وغناء للعقول، وماء وضياء للأرواح، ودواء وشفاء للنفوس، لذا لا يملّ.. إنه حق

وحقيقة وصدق وهدى".[11] ويضرب على ذلك مثلا آية واحدة من سورة آل عمران.[12]

وما دام النورسي يتعامل ها هنا مع "الألفاظ" فإنه يجد نفسه ملزما بالرجوع كرة أخرى إلى "النظم" القرآني الفريد: "نعم، إن الألفاظ القرآنية قد وضعت وضعا بحيث إن لكل كلام بل لكل كلمة بل لكل حرف بل حتى السكون أحيانا وجوها كثيرة جدّا، تمنح كل مخاطب حظه ونصيبه من أبواب مختلفة؛ فمثلا ﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾(النبأ:٧). فحظ عامي من هذا الكلام أنه يرى الجبال كالأوتاد المغروزة في الأرض كما هو ظاهر أمام عينه، فيتأمل ما فيها من نعم وفوائد ويشكر خالقه.

وحصة شاعر من هذا الكلام أنه يتخيل أن الأرض سهل منبسط، وقبة السماء عبارة عن خيمة عظيمة خضراء ضربت عليه، وزُيّنت الخيمة بمصابيح، وأن الجبال تتراءى وهي تملأ دائرة الأفق، تمس قممها أذيال السماء، وكأنها أوتاد تلك الخيمة العظيمة، فتغمره الحيرة والإعجاب ويقدس الصانع الجليل.

أما البدوي البليغ فحصته من هذا الكلام أنه يتصور سطح الأرض كصحراء واسعة، وكأن سلاسل الجبال سلسلة ممتدة لخيم كثيرة بأنواع شتى لمخلوقات متنوعة، حتى إن طبقة التراب عبارة عن غطاء ألقي على تلك الأوتاد المرتفعة فرفعتها برؤوسها الحادة، جاعلة منها مساكن مختلفة لأنواع شتى من المخلوقات. وكذا يفهم فيسجد للفاطر الجليل سجدة حيرة وإعجاب بجعله تلك المخلوقات العظيمة كأنها خيام ضربت على الأرض.

أما الجغرافيّ الأديب فحصّته من هذا الكلام أن كرة الأرض عبارة عن سفينة تمخر عباب بحر المحيط الهوائي أو الأثيري. وأن الجبال أوتاد دقّت على تلك السفينة للتثبيت والموازنة. هكذا يفكر الجغرافي ويقول أمام عظمة القدير ذي الكمال الذي جعل الكرة الأرضية الضخمة سفينة منتظمة وأركبنا فيها، لتجري بنا في آفاق العالم: "سبحانك ما أعظم شأنك".

أما المتخصص في أمور المجتمع والملم بمتطلبات الحضارة الحديثة فحصّته من هذا الكلام أنه يفهم الأرض عبارة عن مسكن، وأن عماد حياة هذا المسكن هو حياة ذوي الحياة، وأن عماد تلك الحياة هو الماء والهواء والتراب التي هي شرائط الحياة. وأن عماد هذه الثلاثة هو الجبال، لأن الجبال مخازن الماء، مشاطة الهواء ومصفاته إذ ترسّب الغازات المضرة، وحامية التراب إذ تحميه من استيلاء البحر والتوحل، وخزينة لسائر ما تقتضيه حياة الإنسان. هكذا يفهم فيحمد ويقدس ذلكم الصانع ذا الجلال والإكرام الذي جعل هذه الجبال العملاقة أوتادا ومخازن معايشنا على الأرض التي هي مسكن حياتنا.

وحصّة فيلسوف طبيعي من هذا الكلام أنه يدرك أن الامتزاجات والانقلابات والزلازل التي تحصل في باطن الأرض تجد استقرارها وسكونها بظهور الجبال، فتكون الجبال سببا لهدوء الأرض، واستقرارها حول محورها ومدارها وعدم عدولها عن مدارها السنوي، وكأن الأرض تتنفس بمنافذ الجبال فيخف غضبها وتسكن حدتها. هكذا يفهم ويطمئن ويَلِج في الإيمان قائلا: "الحكمة لله".[13]

٥- البيان

أما العنصر الخامس وهو "البيان" فيقف عنده طويلا باعتباره جماع العناصر كافة. إنه أعلى مرتبة من مراتب طبقات الخطاب وأقسام الكلام كالترغيب والترهيب، والمدح والذم، والإثبات والإرشاد، والإفهام والإفحام.[14]

"ومن بين آلاف أمثلة مقام الذم والزجر الآية الكريمة: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾(الحجرات:١٢). تنهى هذه الآية الكريمة عن الغيبة بست مرات وتزجر عنها بشدة وعنف، وحيث إن خطاب الآية موجّه إلى المغتابين فيكون المعنى كالآتي: إن الهمزة الموجودة في البداية، للاستفهام الإنكاري حيث يسري حكمه ويسيل كالماء إلى جميع كلمات الآية، فكل كلمة منها تتضمن حكما؛ ففي الكلمة الأولى تخاطب الآية الكريمة بالهمزة: أليس لكم عقل -وهو محل السؤال والجواب- ليعي هذا الأمر القبيح؟ . وفي الكلمة الثانية ﴿أَيُحِبُّ﴾ تخاطب الآية بالهمزة: هل فسد قلبكم -وهو محل الحب والبغض- حتى أصبح يحب أكره الأشياء وأشدها تنفيرا. وفي الكلمة الثالثة ﴿أَحَدُكُمْ﴾ تخاطب بالهمزة: ماذا جرى لحياتكم الاجتماعية -التي تستمد حيويتها من حيوية الجماعة- وما بال مدنيتكم وحضارتكم حتى أصبحت ترضى بما يسمم حياتكم ويعكر صفوكم. وفي الكلمة الرابعة ﴿أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ﴾ تخاطب بالهمزة: ماذا أصابت إنسانيتكم حتى أصبحتم تفترسون صديقكم الحميم. وفي الكلمة الخامسة ﴿أَخِيهِ﴾ تخاطب بالهمزة: أليس بكم رأفة ببني جنسكم، أليس لكم صلة رحم تربطكم معهم حتى أصبحتم تفتكون بمن

هو أخوكم من عدة جهات، وتنهشون شخصه المعنوي المظلوم نهشا قاسيا، أيملك عقلا من يعضّ عضوا من جسمه؟ أوَليس هو بمجنون؟! وفي الكلمة السادسة ﴿مَيْتًا﴾ تخاطب بالهمزة: أين وجدانكم؟ أفَسدتْ فطرتكم حتى أصبحتم تجترحون أبغض الأشياء وأفسدها -وهو أكل لحم أخيكم- في الوقت الذي هو جدير بكل احترام وتوقير".[١٥]

ثم يخلص النورسي إلى القول بأن هذه الآية يفهم منها: "وبما ذكرناه من دلائل مختلفة في كلماتها، أن الغيبة مذمومة عقلا وقلبا وإنسانية ووجدانا وفطرة وعصبية وملّة. فتدبر هذه الآية الكريمة، وانظر كيف أنها تزجر عن جريمة الغيبة بإعجاز بالغ وبإيجاز شديد".[١٦]

خاتمة

إن النورسي وهو يتحدث عن البعد الجمالي في أسلوبيات القرآن الكريم ويحاول أن يجزّئ المعطى الجمالي بالإحالة على مصطلحات البلاغيين كالنظم والمعنى والأسلوب واللفظ والبيان والتكرار... الخ.. لم يقصد ألبتة أن يحصر هذه المعطيات في دوائر تلك الحلقات المحددة في الدراسات البلاغية، ولا أن يخصص للموضوع عددًا من المقاطع والمباحث والرسائل والكلمات، ثم يمضي لمعالجة الموضوعات الأخرى بعيدًا عن أطرها أو نبضها الجمالي.

ذلك أن الإحساس بالجمال، ورؤيته، والتفاعل معه، وتلقيه، وتحليل أبعاده وعناصره -سواء في كتاب الكون المنظور أو الكتاب المقروء- يهيمن على كلمات النورسي ورسائله من بدئها حتى منتهاها.[١٧] ومن ثم فإن ما يقوله النورسي ها هنا عن جماليات الأسلوب القرآني، قد ينتشر بالكلمة القرآنية نفسها، جنبا إلى جنب مع الإبداع الإلهي في الكون والعالم، عبر الرسائل المائة والثلاثين جميعا.

ولكنها ضرورات الدراسة -كما يقولون- تقتضي -أحيانا- من الطرفين: المفكر ودارسيه، تحجيم القيم والمعاني من أجل السيطرة عليها.

ويبقى كتاب الله، قبل هذا وبعده، ينطوي على ما هو أغلى وأعلى وأكثر إثارة للدهشة والإجلال والتقدير: إنه الجلال الإلهي الذي تعجز الكلمات عن تقريب أبعاده للمتلقي، لأنه كلام الله جلّ في علاه، والذي يمكن للمرء أن يلمسه ويحسّه وينفعل معه وهو يقرأ في كتاب الله منذ أول كلمة فيه حتى آخر حرف، لكنه لن يكون بمقدوره أن يصفه، أو يحدده، أو يكتب عنه بما يوازي تمامًا حجمه أو تأثيره الحقيقي.

هذا الجلال القرآني الذي ينبض بالجمال.. بالتناظر والتناسب، والتوزيع المذهل للأبعاد والمساحات.. هذا التدفق الموصول الذي لا يكف عن الخفقان لحظة واحدة، ولا عن الإيماض لحظة واحدة، ولا عن الوعد بالعجيب المدهش لحظة واحدة.

أليس هو قبل هذا، ومعه وبعده، من عطاء الله الجميل الذي يحب الجمال، والذي لا تنفد كلماته، والذي إذا أراد شيئًا أنْ يقول له "كُن" فيكون؟!. ■

---

[*] كلية الآداب، جامعة الموصل / العراق.

الهوامش

[١] الكلمات، لبديع الزمان سعيد النورسي، ص٤٢٤.

[٢] انظر بالتفصيل: الكلمات ص ٤٣٤-٥١٨،٤٢٦-٥٢٢،٥١٩.

[٣] الكلمات ص ٤٢٦؛ وانظر: إشارات الإعجاز، ص ١٣٤،٢٠٨.

[٤] الكلمات ص ٤٢٦-٤٢٧

[٥] الكلمات ص ٤٨١-٤٨٢

[٦] الكلمات ص ٤٢٩-٤٣٠.

[٧] الكلمات، ص ٤٣١.

[٨] الكلمات، ص ٤٥٩-٤٦٠.

[٩] الكلمات، ص ٤٣٦.

[١٠] الكلمات، ص ٤٣٦.

[١١] الكلمات، ص ٤٣٧.

[١٢] ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لاَ يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾(آل عمران:١٥٤)

[١٣] الكلمات ص ٤٥٢- ٤٥٣.

[١٤] الكلمات، ص ٤٣٩.

[١٥] الكلمات ص ٤٣٩- ٤٤٠.

[١٦] الكلمات ص ٤٤٠- ٤٤١.

[١٧] سبق وأن أنجز الباحث دراسة بعنوان "الكلمات: رؤية جمالية" تناولت الأسلوب والتقنيات، والموضوع الجمالي في الطبيعة والعالم والكون وقد نشرت في المجلد الخاص ببحوث الندوة العالمية الثانية حول فكر النورسي، إستانبول، دار سوزلر - ١٩٩٣م.



جمالية العمارة في الثقافة الإسلامية

أ. د. بركات محمد مراد*

نجح فن العمارة الإسلامية في تحقيق التوازن التام بين الجوانب المادية والمشاعر الروحانية من خلال مجموعة من القواعد والأسس والتراكيب التي توصّل إليها كل من المعماري والفنان المسلم، وأمكنه من خلالها حلّ مشاكل البناء بحلول فعّالة، متوائمة تماما مع عقيدته الدينية السمحة، وبما يحافظ على القيم والتقاليد الاجتماعية، وتوظيف معطيات بيئته، أو جلب ما لم يكن متوافرا في بيئته، وتصنيعه وتعديله حتى يتوافق مع قيمه وبيئته.

ولقد حقق معالجة فعالة في مجال تقنين الضوء باستخدام "المشربية" أو "الروشان" أو "الشنشنيل" وكذلك نوافذ الزجاج المعشّق بالجصّ. كما تمكن من تحقيق المحافظة على الحياة الجوّانية التي يحياها الإنسان المسلم في بيته وبيئته المكانية، من خلال مواصفات خاصة حققها معماريا. وتجلّت واضحة في الفناء الداخلي لمنزله وسكناه.

ونلاحظ أن الفناء الداخلي في البيت العربي تتجلى فيه معالجة معمارية تحجب الساكن عن جميع تقلبات الطبيعة وتترك له التمتع بالسماء وحدها، سماء الشرق وصفائه وسحره وروعته. فإن فكرة الفناء الداخلي نابعةٌ من بذور الفكر الشرقي واستجابةٌ صريحة لمقتضيات المناخ الشرقي. إن الفناء الداخلي أو الحديقة الخاصة التي يتجمع فيها أهل البيت تقوّي من الروابط الأسرية وتزيد بالتالي الشعور بالانتماء للأرض والمجتمع، ويعتبر مسكنًا مريحا يشعر فيه بالخصوصية وتوفير حديقة خاصة أو فناء خاص بكل مسكن حيث ينمو الشعور بالجيرة، ومراعاة الجار، وبالتالي الإحساس بالانتماء.

وكان الفناء في الأغلب يحتوي على فسقية داخل الحديقة، في أشكال هندسية مثمّنة داخل مربّع، وإن شكل الفسقية هذا لم يأتِ صدفة، وإنما اختير -كما يقول أحد الباحثين- لقيمة رمزية؛ فالمنزل بالنسبة للمسلم كان عبارة عن تكوين صغير، وباستخدام الرمز والعناصر المعمارية للتعبير عن نظرته الكونية كان يعتبر القبة رمز السماء، ولهذا ولكي يشد قبة السماء إلى وسط الدار ويجعل قدسيتها تتسرب إلى الحجرات، فإنه عمِل الفسقية على شكل القبة الساسانية مقلوبة لتنعكس السماء الحقيقية على أسطح المياه في هذه السماء الرمزية.

هكذا توصل البدوي العربي إلى إدخال الطبيعة والكون اللذين كان دائم الاتصال بهما في حياته البدوية في الصحراء إلى البيت الحضري بواسطة الرمز وتحويل الطبيعة إلى عناصر معمارية، غير أن المعماريين يعتبرون تدفق المياه من نافورة أو سلسبيل هو في حد ذاته رمز للحياة التي يتأملها الإنسان، إضافة إلى أنها تساعد على ترطيب الجو والهواء.

المشربية أشكالها وخصوصيتها

وقد تميز البيت المصري في العصر الإسلامي -مثلا- بوجود مشربية، تسمح بدخول الهواء ولا تسمح بدخول أشعّة الشمس، وعادة ما توضع المشربيات لتغطي المسطح الخارجي للشبابيك أو البَلْكونات أو الشمعة التي تستعمل للجلوس في الداخل والتمتع بالخصوصية، وتلطيف الرياح دون التعرض لأشعّة الشمس. وتعتبر المشربية مظهرا من مظاهر العمارة الإسلامية جاء متوافقا مع الظروف المختلفة للمجتمع الإسلامي.

والمقصود بالمشربية ذلك الجزء البارز عن سمت حوائط المباني التي تطل على الشارع أو على الفناء الأوسط للمنازل الإسلامية بغرض زيادة مساحة سطح الأدوار العليا. ويستند هذا الجزء البارز إلى "كوابيل" و"مدادات" من الحجر أو الخشب تربط الجزء البارز من المبنى، بينما تُغطّى الجوانب الرأسية الثلاثة لهذا الجزء البارز بحشوات من الخشب الخرط المكوّن من "برامق" مخروطية الشكل دقيقة الصنع تجمع بطريقة فنية بحيث يَنتج عن تجمعها أشكالٌ زخرفية هندسية ونباتية أو كتابات عربية.

وسميت المشربية بهذا الاسم لوجود صلة وثيقة بين هذا الجزء من المبنى وبين أواني الشراب (القلل الفخارية) التي كانت توضع بها. وتعرف المشربية في بعض بلدان العالم الإسلامي باسم "روشن أو روشان" وهي تعريب للكلمة الفارسية "روزن" وتعني الكوّة أو النافذة أو الشرفة.

وقد وصل فن المشربية إلى درجة كبيرة من الإتقان في مصر خلال العصر المملوكي، ويظهر ذلك بوضوح في القطوع الخشبي المنقول من مدرسة السلطان حسن إلى متحف الفن الإسلامي بالقاهرة وفي مجموعة المشربيات في منزل "زينب خاتون" وغيرها.

وتستعمل المشربيات، التي هي معالجة مصرية إسلامية، في الجزء السفلي من السكن لكسر حدة الضوء وتوفير الخصوصية، أما الأجزاء المرتفعة فتستعمل لها مشربيات أوسع تساعد على التهوية. ومما هو جدير بالذكر أن الوحدات المختلفة لهذه المشربيات، أو بمعنى أدقّ لهذه المقاسات المطلقة لا يمكن تكبيرها أو تصغيرها، حيث إن هذه المشربيات تستعمل لكسر حدّة الضوء الناتج عن شدة الإضاءة. وقد عجز معماريو الغرب عن تفهم عمق الحلول المعمارية في الشرق، فاقتبسوا أشكالها دون جوهرها؛ فأتت استعمالاتهم لأشكالها -كما يقول باحث معاصر- إلى عكس الغرض منها، فزادت حدة الضوء في كثير من الحالات.

والمشربية تبرز عن البناء إلى الأمام كلها من الخشب الأرابيسك، تَحظى بالدقة والمهارة في صنعها وزخرفتها، كما تحجب السكّان عن عيون المارة بتوزيع الضوء والظل على تكوينها في تدرج رائع، يعلوها طاقات من الزجاج الملوّن المعشق.

وقد ظهرت المشربية في العمارة الإسلامية مرتبطة بالخصوصية، وأخذت أشكالا عدة، وتطورت تطورا كبيرا؛ ففي القصور أخذت شكل المقصورات التي تطل على "التختبوش" وهي الجلسات الخاصة حول الحديقة الداخلية بنافوراتها وطيورها. والمقصورة قد تكون مثلثة الشكل أو مربعة أو مستطيلة أو دائرية، وتظهر في الوكالات والخانات التي لا زالت موجودة حتى الآن كوكالة الغوري وخان الخليلي.

وهذا الشكل من البلكونات أو المشربيات يعتبر صبغة معتدلة في العمارة الإسلامية إذ تحفظ الخصوصية، وتعطي للساكن حرية الرؤية والمشاهدة، وخاصة في الخانات والوكالات التي كانت تعتبر سكنا جماعيا للأغراب وغيرهم. كما أنها تعمل على تلطيف

درجة الحرارة من خلال النسيم الذي يمرّ من بين هذه الفتحات، خاصة وأن التكوين الهيكلي والزخرفي للمشـــربية يتفق تماما مع الظروف المناخية لمعظم بلدان العالم الإســـلامي والذي تسوده في معظم فصول السنة شمس ساطعة.

وتعد المشربية من أحسن الحلول لهذه المظاهر الطبيعية، إذ إن الفتحات الضيقة التي تتخلل قطع الخرط تتحكم في كمية الضوء النافذ إلى الغرفة المقامة عليها المشربية، وتعمل بذلك على تلطيف درجة الحرارة. ومن اللافت للنظر أن المشـــربية كانت تُصنع من أخشاب لها خواص معينة تمتص الرطوبة، وتمنع زَغْللة العينين، بل من خلال التحكم في "دانْتيللا" المشربية يمكن التحكم في حركة الهواء، ومعالجة الإضاءة في المناطق الشديدة الحرارة.

ومـــن الجدير بالذكـــر أن طريقة المشـــربية كنوافذ للتهوية والإضاءة تمثل جانبا اقتصاديا مهمّا، فقد كانت الأجزاء الصغيرة المتبقية من عمل الأسقف والأبواب والنوافذ وغيرها من وحدات البناء التي تعتمد على الخشب تستغل في تصنيع المشربية، كما أن الاعتقاد بارتفاع تكلفة المشـــربية أمكن التغلب عليها باستخدام خامات بديلة رخيصة الثمن، مثل خشـــب النخيل بعد معالجته بالمواد التي تقاوم الحرارة والرطوبة.

من البيت إلى المدينة

كذلك نجد تخطيط المدينة الإســـلامية يتميز بالأصالة، وإذا كان للبيت اســـتقلاله وقدســـيته وارتفاع جدرانه مع ضيق نوافذها وعلوهـــا، فإن المدينـــة ككل يجب أن تكون مســـورة ومخنْدقة ومليئة بالمرافق، وما يحكم الأمر كله هو تداخل الأشياء وتتابعها وانتشارها وتجريدها.

فإذا كان هناك تعامل مع العناصر النباتية والهندسية، وقوامها الخطوط المنحنية والمستديرة والملتفة مع مراعاة للتقابل والتوازن، فإنه يلاحظ عدم وجود بدايـــة أو نهاية لها، فهي تمتد وتأخذ في الامتـــداد لتعبر عن الأزلي، وعن انطلاقة الروح إلى ما يســـمى "التآلـــف العذب" للوصول إلى التيه الأعذب، بواســـطة الدوائر المتماســـة والمتحاورة والخطوط المنكسرة والمتشابكة، فضلا عن وجود المثلث والمربع والشكل الخماسي والسداسي، كما يتضح لنا في تلك الزخارف التي أبدعها الفنان المســـلم، وزخرف فيها أبنيته ومساجده ومنازله وأسواقه.

شهادة على العصر

ومن هنا فإذا حرص الفنان المعماري في العصور الإسلامية على إضفاء طابع الإبهار على الشـــكل الذي أنتجه، فلا نرهق أنفسنا -كما يقول باحث وناقد للفـــن المعاصر- كثيرا في البحث عن أصول بيزنطية أو ساســـانية، لأن الفنان هنا وبمعناه الشامل يقدم رؤية كاملة وشـــهادات على عصره. فتفســـيره يكمن في الفكر الـــذي وجهه وقيده أحيانا في مقابل الفنون الســـابقة في عصور ما قبل الإســـلام. فقد أحل الإســـلام مبادئ التوحيد والمساواة، وألغى الصراع بين الإنســـان والغيب، وبينه وبين الطبيعة، وبينه وبين الخطيئة، وسرعان ما تلقى المعمار والفنان هذا، وترجمه إلى شكل ومضمون.

لم يكن المعمار المســـلم، وذلك منذ البداية مشـــغولا ببناء عمارة للمدن تعبّر عن انتصار وطموح إلى سلطان واسع -كما جرت العادة في الحضارات السابقة- بل كان مهتما ببناء عمارة لا تنتصر لأنها لا تُهـــزم. والمدينة التي لا تفتقر، إنها الحق الواحد الشـــاهدة على عرَضية وفناء كل شـــيء إلا هو ﷻ؛ فهو الحي الغالـــب الغني الباقي. ولذا فعندما بنى المســـلمون المنتصرون في الأندلس حفروا على جدرانها عبارات "لا غالب إلا الله ".

الفنان المسلم واستغلال البيئة

ولا يمكن أن نغفل اســـتغلال الفنان المســـلم للمـــواد المعمارية الموجـــودة بوفـــرة في البيئة، وهـــذا نجده واضحـــا في الأبنية والقصور والمساجد التي أنشـــأها الفنان المسلم في الجمهوريات الإســـلامية الواقعة جنـــوب الاتحاد الســـوفيتي ســـابقا، مثل تركســـتان وما وراء النهر وإيـــران وأذربيجان وأفغانســـتان.

فمن غير المنتظر أن يتّخذ نشاط البناء والإنشاء المعماري فيها كلها طرازا واحدًا ذا هيئة واحدة متميزة بخصائص واضحة، وإنما الرابطة هنا تتمثل في خصائص تفصيلية تتصل بالمواد المســـتعملة والطرق الفنيـــة التي لجأ إليها المعماريون في علاج المشـــكلات المعمارية، وكذلك في أنواع معينة من الزخارف التي سادت فيها.

قال "برنارد بيترســـون" في خطاب إلـــ "جون ديريك": "إن طبيعة الصخور هناك تمكن المعماري من إنشاء مبان تشبه الجواهر في دقتها وإحكامها". وبالفعل فإن خامات الصخور التي أنشئت منها المباني الســـلجوقية بديعة في صلابتها واســـتجابتها للنحت

والزخرفة في آن واحد. والنتيجة أن الصخور وحدها مكّنت المعماري من إنشاء أعمال ذات متانة وجمال؛ فالجدران والبوّابات والأعمدة والعقود تقوم متينة محكمة، والمزخرِف ينقش فيها ما يشاء في إحكام ودقّة، وألوان هذه الأحجار طبيعية متنوعة، تكفي وحدها لإخراج صور فنية جميلة ذات ألوان. وقد كان ذلك مُعينا للبنّاء والمزخرِف على ابتكار "صنعة خاصة" وصل بها إلى ذروة حقيقية من ذرى الإبداع المعماري على مر العصور.

وقد أبدع المعماريون المسلمون في استخدام هذا الآجرّ في البناء والزخرفة على نحو لا يضارعه فيه إلا الفنانون الأندلسيون، الذين استخدموا الآجرّ في بناء منشآت الطرازين المستعربين والمدجّنين الأندلسيين.

القبة رمز السماء

والقبة في العمارة الإسلامية رمز للسماء، وخاصة في عمارة المساجد والأضرحة. فمبنى المسجد يعبر عن انفتاحه في اتجاهين بتصميمه وتكويناته المعمارية في الاتجاه الأول رأسيا للاتصال بالسماء وللاتجاه الثاني أفقيا نحو الكعبة المكرمة للاتصال بكعبة المسلمين، وهو بذلك قد حقق الرمز باتصاله بالسماء على مستوى الجماعة بواسطة المئذنة في فكرة التسامي إلى العلا في عمارة الجامع بالمئذنة.

ومما لا شك فيه أن القباب القرطبية كان لها أعظم الأثر في إلهام الفنانين الفرنسيين في منطقة "أبل دي فرانس" إلى الحل المعماري الفريد الذي تكشف عنه القباب القوطية عندما وفقوا إلى فكرة دمج الضلوع القرطبية في القبوة المتعارضة عن طريق دعم الأجزاء البارزة من هذه القبوة الأخيرة بإدخال نظام الضلوع المتقاطعة الصلبة. ولم يلبث هذا الابتكار أن طبق في تغطية مسطحات واسعة بالكنائس عوضا عن مواضع ضيقة محصورة.

وهنا ينحصر عنصر الإبهار في إدراك المعمار المسلم لأصول الجمال الناشئ من تشابك الضلوع وتقاطعها هندسيا حيث تؤلف أشكالاً نجمية متناسقة، وعبّر المقري في كتابه "نفح الطيب" عن هذا الإبهار بقوله: "وظُهورُ القباب مؤللةٌ وبطونها مهللة، كأنها تيجان رصع فيها ياقوت ومرجان".

فكانت الزوايا والأسقف المحلية أو المقببة التي استعملها المعماري القدير "حسن فتحي" في عمارته عنصرا رئيسيا أو العنصر الرئيس الأوحد في تغطيتها، حيث يرى لها مزاياها الفريدة، فهي تعكس أكبر قدر من أشعة الشمس، كما توفر قدرا من الظلال والظل، الأمر الذي يخفف من الأحمال الحرارية في الداخل، ومن ناحية فإن هذه الأبنية أو القباب تعمل على زيادة ارتفاع الجزء الأوسط من السقف من الداخل الأمر الذي يساعد على امتصاص الجو الحار الذي يرتفع إلى أعلى، كما أن حركة الهواء تزيد على الأقبية والقباب.

الإيقاع المعماري

والإيقاع يوصف بأنه كم التدفق الذي نقيس به مدى الحيوية أو الخمود في الشعر والموسيقى أو أنه تيار الحياة الذي يسرى في كيان الصياغات بقدرٍ من شأنه أن يَطرق عتبة مشاعرنا ليثبت وجوده.

ويكشف عنصر الإيقاع في مجال العمارة عن نوازع مبدعيه. فاستخدام المنحنيات المراوغة برؤوس أعمدة الكرنك في قباب مساجد بلاد الشرق يدل على سحر البيئة، وعلى انجذاب الشرقيين الصوفي نحو أبواب السماء. وفي انضباط التربيع في رحاب ساحات المعابد دلالة على مدى انضباط الطابع الموسوعي للفكر الإغريقي، واستخدام الرومان لشكل القوس النصف دائري علامة على مدى الصلف وشدة الاعتداد بالنفس، وشكل ارتفاع الانسياب الحلزوني في نوافذ البيوت ببلاد المغرب هو الذي يكشف عن مدى طموح المغربيين.

وهكذا يمكننا أن ندرك تلك العلاقات الخفية التي تنشأ بين مختلف الفنون، ولذلك كانت علاقة العمارة بالشعر والموسيقى موضع دراسة في العصر الحديث، ويمكننا أيضا أن نستشف علاقة العمارة بالفلسفة، حين نحاول قراءة الفلسفة المختفية خلف العمارة الإسلامية، أو قراءة ما توحي به هذه العمارة من فلسفة ورؤى فكرية أو روحية مستمدة في الأساس من الإسلام كوحي إلهي. ■

(*) رئيس قسم الفلسفة والاجتماع، كلية التربية، جامعة عين شمس / مصر.

طوبى

نبيلة الخطيب*

خُلقنا..
وما عبَثاً
كان كل الذي فوقها
من ترابْ...
دحاها مهاداً
لمن يسكنون،
وأودَعَنا اللهُ
سرّ التماهي،
وعلّمها كيف تغدو دِثاراً
وأُمًّا رَؤومًا
لمن يهجعون...
فما العمرُ إلا رفيفُ الثواني،
كما زَغَب في رياش السِّنين...
وما الموتُ إلاّ
طقوسٌ من الصمْت
في بُرهة من سكونٍ...
ونعلمُ أنّا بدنْيا امتحان
لماذا إذن يُحزمُ اللبُّ
ذاكرةً من سراب؟!

وننسى القواعدَ عند المرور،
ولا نحتفي جيدًا بالحساب؟!
فينسرحُ العقلُ من صحوة الروحِ
ترنيمةً للجنون!
نخطّ على صفحة العمرِ..
بالجمر..
ننقشُ وشماً
على جبهة الدهرِ،
ندري بأنّا سنمضي،
ونلقي بأجسادنا للتراب،
ونسعى بأرواحنا
كي تقرّ
إذا ما استقرّت
مع الخالدين...
سلامٌ عليها من الله
في كل حين..
لهذا يحسّ المسافرُ منّا،
بأروع ما يُبهجُ النفسَ،
في مهرجان الإياب...

سلامٌ علينا من الله
في كل حين...
وطوبى...
لمن يُتقنون التبصّرَ
حتى وإنْ أطبقَ السرمدان:
الدجى والضباب...
وطوبى.. لمن ينثرونَ
بذارَ الحياة
بأرضٍ يباب...
لمن يُغْدقونَ
بفصل الجفاف الرّواء...
فتخضرّ فينا رياضُ الكلام،
وتمتدّ فيها حقولُ الضياء،
وطوبى..
لمن يعمُرونَ
بيوتًا على الأرضِ
تغدو قصورًا لهم
في أعالي السماء...

(*) شاعرة وأديبة – الأردن.



حضارتنا الإسلامية... من المرض إلى النهضة

أ.د. عبد الحليم عويس*

في بعض ظروف الخلل لا نريد الذهاب إلى الطبيب المختص النطاسي، ونذهب إلى أطباء، نعرف بحواسنا ومشاعرنا أنهم يستوردون الأمراض التي ليست من أمراض بيئتنا، ويصفون أدْويَة لأمراض غير موجودة. إنهم يفرضون علينا المرض، ثم يصفون الدواء المستورد. أما أمراضنا الحقيقية فهم أبعد الناس عن التعرف عليها وعلاجها.

وإنما مرضنا في هذا الجانب هو "الفقر العام" الذي مبعثه "الفقر العقلي" والجمود الحضاري الذي يجعلنا نترك الملايين من الأفدنة الخصبة الصالحة للزراعة في بلادنا؛ بينما يُصلِح غيرنا الأرض الصحراوية. ثم نشكو قلة المحاصيل ونستوردها من بلاد أقل منا في الإمكانيات الزراعية بكثير، لكنهم أغنى منّا عقلا، ووعيا، وتخطيطا، وإرادة.

وإنما أمراضنا في حقيقتها أمراض نبعت من انحرافات في فترة حضارتنا، وصلت بنا إلى انحطاط فكري، وتخلف، وخمول، ومضاعفات أخرى؛ تراكمت في ظل انفكاك ارتباطنا بديننا بشموله وانسجامه وصفائه وإيجابيته.

بعض المعالم الأساسية في طريق النهضة

ونبدأ الآن في الإلماع إلى بعض المعالم الأساسية في طريق النهضة بإذن الله. فالخطوة الأولى في عملية العودة إلى قطار الحضارة الإسلامية تنحصر في شرطين متكاملين:

١-أن تتهيأ النفس المسلمة لتلقي الإسلام

٢-أن يعرض الإسلام كما هو من القرآن والسنة، لا من ضغوط الواقع المريض وبدون أن نلجأ إلى علم النفس الفردي، أو علم النفس الاجتماعي؛ فإننا نميل إلى أنه من الصعب التفرقة بين الإنسان كفرد والإنسان كعضو في المجتمع؛ وبالتالي فإن ما نريد تقديمه من علاج لا بد أن يلاحظ التيارات المزاحمة، أي إنه بينما يحاول تهيئة النفس لتلقي الإسلام الصحيح، فإن عليه أن يلاحظ أن عمله هذا يتعرض كل يوم لضغوط معاكسة، وما لم يعدّ لهذا التزاحم عناصر مقاومة فإنه لن يصل إلى تقدم في العلاج.

كما أن تفريغ النفس مما ورثته في حضارتها وطفولتها من مفاهيم، لن يتم إلا بوضع البديل الذي يطرد القديم. فالنفس لا تعرف "الخلاء المطلق"، وحبذا أن نركز على الجيل الجديد، الذي قد يسهُل تقديم التصورات الصحيحة له عن طريق تقديم "ثقافة إسلامية" تنقل له الإسلام كما هو.

وإذا كان القرآن يقول لنا: ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾(الرعد:١١)، فمن الواضح أن تغيير ما بالنفس لن يتم إلا عن تغيير ما بالفكر، وبالتالي فالثقافة الإسلامية الصحيحة بمجالاتها في التوجيه، والتربية، والأخلاق، وغرس النزعة الجمالية، والسلوك المنسق البناء... هي الخطوة الأولى لإيجاد "إنسان الحضارة الإسلامية" القادر على النهوض بها في دورة جديدة للتاريخ.

إن حضارتنا تقبل -بطبيعتها- أي انفتاح أو "عصرية" عقلانية في مجال الدراسات الطبيعية والكونية. وهي واثقة أن علماء الطبيعة وغيرهم لو التزموا المنهج الموضوعي، فلن يصلوا -ولم يصلوا حتى الآن مع أنهم في القمة- إلى شيء من معطيات هذه العلوم تستطيع أن تهز أسسها الفكرية.

وبالتالي، فهي ترى ضرورة الجمع بين "الثابت" (الأصالة)، و"المتغير" (نتاج الفكر). وترى أن ما جاء في القرآن والسنة الصحيحة هو هذا "الثابت" الذي تبنى فوقه الطوابق "المتغيرة".. ولا تعارض بين الثابت المتصل بالفطرة الممنوح ممن خلق الخلق، ويعلم جوهرهم، وبين المتغير المحض من اجتهاد العقل البشري الذي يتطور عاما بعد عام وقد يُرفض في جيل ما أثبتته أجيال كثيرة سابقة.

إن "الأصالة" شرط أساسي من شروط بقاء هويتنا وكياننا الداخلي في عالم يعج بألوان الصراع الحضاري. كما أننا في حاجة إلى "العصرية" لكي نستطيع الحياة مع أبناء هذا العصر، وبهما معا، وممتزجين، نستطيع أن نسير في موكب التاريخ.

إن الاعتماد على ما تقدمه الأصالة وحدها، إنما يعني الاكتفاء بالحلول المستوردة من الماضي، كما أن الاعتماد على التجارب المعاصرة إنما يعني الاكتفاء بالحلول المستوردة من الخارج. وكلا النوعين من الاستيراد لن يكون مطابقا لما تحتاجه ذاتنا وظروفنا بكل أبعادها وأجزائها وتحدياتها. وبالتالي فإن استئناف حضارتنا الإسلامية في القرن الحادي والعشرين (الخامس عشر للهجرة) يقتضي أن ننطلق من فكر إسلامي أصيل؛ يعي جذوره الحضارية، ويعي التحديات التي يواجهها، والواقع الذي يعيشه؛ ليعبر عن الشخصية المسلمة، وعن غاياتها وأهدافها في الحضارة والتاريخ بكافة أعماقها وشمولها.[١] وهو عمل لا يصنعه فرد واحد؛ لأنه لا بد أن يكون شاملا للجوانب الاجتماعية كلها سياسية واقتصادية وأخلاقية، بل هو مهمة المؤسسات العلمية والإعلامية والمفكرين الإسلاميين والحكام؛ بل وكل مهتم بقضية مستقبل هذه الأمة، ودورها الحضاري في التاريخ.

لقد واجه الخليفة الراشدي الثاني عمر بن الخطاب ﷺ حضارتين انفتحتا على الدولة الإسلامية وقدّمتا من التصورات والمشكلات والأوضاع والضغوط، ما كان كافيًا لأن يهز قواعد الدولة الإسلامية الناشئة من أساسها. لكن عبقرية عمر ﷺ، وعبقرية الجيل الإسلامي الأول، وشعوره، وإيمانه بتفوق مبادئه، ووعيه بدور الأصالة في تكييف المعاصرة، وضمان السيطرة عليها لا الذوبان فيها.. هذا كله كان له أكبر الفضل في أن يستطيع عمر بن الخطاب ﷺ وجيله الراشدي تحقيق الانتصار الحضاري أيضا -بعد العسكري- على الحضارات الجديدة، ونجح المجتمع المسلم في الإفادة من إيجابياتها، ونفي سلبياتها، وتم صهر هاتين الحضارتين في الوعاء الإسلامي، وأصبحتا جزءً من الحضارة الإسلامية.

وما فعلته الحضارة الإسلامية في موقفها من الرومان والفرس فعلته أوروبا في أخذها من الحضارة الإسلامية حين قطعت الجذور الإسلامية لما اقتبسته.

ولا يتردد مفكر كبير كـ"أرنولد توينبي" خلال أبحاثه الحضارية في الربط بين الحضارة الأوربية والكنسية الكاثوليكية. وفي رأيه أن الحضارة عموما تنشأ عن الأديان، أي من "الشرارة الإلهية الخلاّقة".

فلماذا لا ننطلق من ديننا وأصالتنا حاملين القرآن والعربية في



يد، وكل ما نســـتطيع الوصول إليه من إبداع علمي وفني في اليد الأخرى!

إن العالم المتحضر يقوده خلاصـــة صفوته المثقفة، وإن هذه الصفوة لتشكل مؤسسات تستغل كل معطيات العقل الحديث، وتتمتـــع -كقيادة حضارية- بكل الإمكانـــات الاجتماعية التي تمكنها من أداء دورها.

وقد فطنت "اليابـــان" -بعد أن دمـــرت في الحرب العالمية الثانية- إلى أهمية هذا الأساس في بناء الأمم، فأعطت للمدرسين مرتبات وُكلاء الـــوِزارة وصلاحيات وُكلاء النيابة، ووفّرت لهم كل إمكانيات البناء. أما طبقة "العلماء" أو "التكنوقراطيّين" فهي تتمتع في العالم المتقدم كله بما كانت تتمتع به أيّ صفوة ممتازة في الحضارة السابقة. ولذا، فليس عجبًا أن عادت اليابان خلال أقل من ربع قرن لتشـــارك في قيادة العالم، بعد أن كانت قد دمرت تدميراً شبه كامل بأسلحة أمريكا الذرّية.

إن الطبقات التي تقود الفكر والأخلاق يجب أن "تستشـــار" على الأقل، بطريقة مدروسة ودائمة وبشكل قانوني في خطوات الطريق الحضاري للأمة المســـلمة، على أن تكون هذه الطبقات موثوقا في انتمائها لعقيدة الأمة وتراثها، وعلى أن تكون من أهل الكفاية والدين لا من أهل الثقة والدنيا.

ومن خلال الخطين المتكاملين -لا المتوازيين- أي خط القيادة الحضاريـــة المتمثلة في الصفوة المختارة، وخط الرعية المســـؤولة أيضاً قَدْر حجمها "كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته" (متفق عليه)... من خلال هذين الخطين المتكاملين تتحرك الأمة كلها في سلّم الحضارة بانسجام وتآزر.

"ولا ريب أن أعباء ومسؤولياتِ التوجيهِ والابتكارِ والنظر إلى المســـتقبل، والتطلع إلى الأعلى، تُلقَى بثقلها على كواهل النخبة والصفوة. وبقدر ما يكون شعور الطليعة بضخامة الأعباء مرهقا، وبقدر ما تواجهه النخبة بتصورات ســـليمة وبعقليات متفتحة.. بقدر ما تتمكن هذه النخبة من تجاوز المشكلات الحضارية، ومن دفع الأمة في مجالات الرقـــي والتصعيد". "وتظل الأمة والجماعة بخير طالما أن هذه الطليعة متفتحةُ الأفق، مدركةٌ لحركة التطور، عارفة بطبيعة عصرها، وبأســـاليب الحياة المستجدّة. وعندما تبدأ هذه النخبة بالانغلاق على نفســـها، أو عندما تصاب هذه الفئة أو تفســـد، أو يقع الشقاق بين أفرادها؛ فإنها تكون قد استنفدت أغراضها فتعجز عن القيادة الراشدة".(٢)

فالنخبة في ظل القاعدة البشرية التي تتجاوب معها، تستطيع أن تترجـــم تطلعات الأمة إلى واقع ملمـــوس، كما أن القاعدة الواعية تستطيع أن تحاسب النخبة الراشدة، وتعصمها من أمراض الزعامة وانحرافاتها. وبالتالي تتبادل النخبة والقاعدة التأثير والتأثر، وتمضي سفينة الأمة متخطيةً العواصف والتقلبات بفضل تماسكها التام ووعيها الحضاري الكامل.

الدور العالمي

لن يستطيع المســـلمون الخروج من مشكلاتهم الصغيرة والجزئية والمبعثرة في أكثر أركان فكرهم وحياتهم إلا بالإصرار على رفض التمزق الداخلي، والانهيار النفسي الذي تُحدثه هذه المشكلات. ولن يتم لهم ذلك إلا بالإحساس بمسؤولية كونية وعالمية ليس تجاه أنفسهم ومجتمعاتهم فحســـب؛ بل تجاه الإنسانية كلها. وهذا ما تحدده لنا الآية الكريمة: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَـــطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾(البقرة:١٤٣). وكما يقول المفكر الهندي المسلم: "وحيد الدين خان": "فإنه لم يوجد عصر من العصور تفتحت فيه آفاق العمل لرسالة الإســـلام العالمية مثل القرن العشرين، بفضل النتائج الدنيوية لثورة الإسلام التوحيدية".

فهناك كل أنواع التأييد للفكر الإسلامي والتصور الإسلامي للكون والحياة، تقدمها العلوم الإنســـانية التي تندرج تحتها علوم النفس والاجتماع والتاريخ والتشـــريع، كما أن ما اكتشف من

أحسن إلى من أساءِ إليك... وبالذوق الرفيع قابِل المفتقرَ إلى الذوق... فالأقداح بما فيها تنضح... وبعلو نفسك وسمو خُلقك عامِلْ فقراء السلوك والخُلُق.

* * *

حقائق الكون قد دحض بعض الأساطير التي قدمتها الأديان الأخرى، وأكّدت -في الوقت نفسه- أحقّيّة الدين الوحيد الجدير بهذه التسمية، وهو الإسلام.

ومما قدمه العصر من وسائل العون للدعوة الإسلامية والحضارة الإسلامية:[٣]

١-شيوع حرية الرأي والبحث.

٢-شيوع تدبر ظواهر الكون وتسخيرها.

٣-شيوع المنهج العلمي والفكر التاريخي الذي قضى على الأسطورة والفكر الخرافي.

٤-توفر الوسائل الإعلامية كأجهزة الإعلام السمعية والمرئية والمطبعة.

وثمة جانب آخر خطر يساعد تحول المسلم إلى رسول حضارة إنسانية في هذا العصر بحيث ينظر إليه على أنه المنقذ من خطر الفناء الإنساني الشامل.

وهذا الجانب يتمثل في الأوضاع التي انتهت إليها الحضارة الأوربية التي توشك أن تقضي على إنسانية الإنسان ومستقبله.

الأفول الحضاري

في ظل هذه الحضارة "لا ندري إلى أين نحن سائرون.. ولكننا نسير" كما عبّر الشاعر الأمريكي "بينيه". أما "رينيه دوبو" فيعبر عن هذا الانهيار في كتابه "إنسانية الإنسان"، ويصف الحضارة الأوربية في كلمات قليلة: "كل حياة شخصية ناجحة، وكل مدينة ناجحة عمّتْها أجهزةٌ منظمة من العلاقات التي تصل الإنسان بالمجتمع وبالطبيعة، وهذه العلاقات الأساسية تضطرب بسرعة وعمقٍ الآنَ بسبب الحياة العصرية التي نحياها. والخطورة ليست مقصورة فقط على اغتصابنا للطبيعة، بل في تهديدنا لمستقبل البشرية نفسها".

وعن "دوبو" ننقل كلمة رئيس بلدية "كليفند" متهكما: "إذا لم نكن واعين فسيذكرنا التاريخ على أننا الجيل الذي رفع إنسانا إلى القمر، بينما هو غائص إلى ركبته في الأوحال والقاذورات".

ولن نستطيع تتبع ما قاله كل المشخّصين لحضارة أوربا من أبنائها، وذلك كـ "ألكسيس كاريل" في كتابه "الإنسان ذلك المجهول"، أو "أرنولد توينبي" في دراسته للتاريخ، أو "اشبنجلر" في كتابه "عن أقوال الغرب"، أو روجيه جارودي في كتابه "حوار الحضارات"، أو "كونستاتنان جورجيو" في قصته "الساعة الخامسة والعشرون"، وهي الساعة التي يرمز بها "جورجيو" إلى أفول الحضارة الأوربية وانهيارها، واكتساح حضارة جديدة قادمة من الشرق: "حيث يكتسح رجل الشرق المجتمع الآلي، وسيستعمل النور الكهربائي لإضاءة الشوارع والبيوت؛ لكنه لن يبلغ به مرتبة الرقيق، ولن يُرفع له معابد وصوامع كما هو الحال في بربرية المجتمع الآلي الغربي. إنه لن يضيء بنور "النيون" خطوط القلب والفكر. إن رجل الشرق سيجعل نفسه سيداً للآلات والمجتمع الآلي".

إن الفكر الإنساني المتحرر المستوعب لأزمة الحضارة المادية التي تكاد تخنق إنسانية الإنسان، وتدمر الجنس البشري.. هذا الفكر الإنساني سيجد في الصياغة الإسلامية للحضارة المحضن والملاذ والملجأ؛ لكن المهم أن يدرك المسلمون دورهم، ويخططوا له ويستغلوا الإمكانات المتاحة للدعوة في هذا العصر. ويتقدموا بقلبٍ واثق مؤمن، وعقل قوي منفتح إلى الساحة التي تناديهم: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ۞ بِنَصْرِ اللهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾(الروم:٤-٥). ■

(*) أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية / مصر.

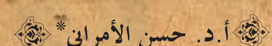
الهوامش

(١) د. عبد الحميد أبو سليمان، اللقاء الرابع للندوة العالمية بالرياض ١٩٧٩ م.

(٢) محمد علي طنطاوي: (الحضارة الإسلامية بين التحدي والتعطيل)، اللقاء الرابع للندوة العالمية بالرياض، سنة ١٣٩٩ هـ.

(٣) انظر بتصرف رسالة "إمكانات جديدة للدعوة" نشر القاهرة.




أ.د. حسن الأمراني*

من وحي مكة تزدهي أشعاري ... وتفيض لحنًا رائقا أوتاري

الوحي منها جاءنا متلألئا ... فازدانت الآفاق بالأقمار

لم يَبق في الأرض الفسيحة بُقعة ... إلا ارتوت من دافق الأنوار

فانجابت الظلمات وازدهت الدُّنا ... ألقاً، وزان الطِّيب خَير جِرار

فله بأرض الروم شمسُ حقيقةٍ ... وله بأرض الهند نورٌ سار

"إقبالُ" لمّا مسّ خافقه ارتوى ... عِشقا، ففاض السحر في القِيثار

لولاه لم تَشرح حمامةُ أَيكة ... أشواقَها للدوح والأزهار

ولَمَا استرقّ العشقُ قلبَ فَراشة ... فهَوتْ مسبِّحة بقلب النّار

أختاه! إن نَعشَق فإنَّ إمامنا ... قِدما أتى العشّاقَ بالأخبار:

من عفّ في درب المحبّة وارتدى ... حُلل التّقى، أضحى بخير جوار

أختاه، نور الحق يهْدي خطونا ... والنور في الصحراء نهرٌ جار

غنيتْ قلوب الناس يا أخت التقى ... حبًّا، فما اغترّوا بسحر نُضار

هل كان غير الحبّ يملأ درْبنا ... بالحسن، بالخيرات، بالإيثار؟

نبني الحضارة عزة ومهابة ... لكنّ حبّ الله خيرُ شعار

(*) رئيس تحرير مجلة "المشكاة" / المغرب



في ليلة طويلة ظلماء، ساقني الكرب إلى أعتاب الخالق ﷻ. وهناك لقيت من الأنس أضعاف ما أملته من دنيا الناس وشؤونهم. فغمرتني نشوة الذل لقيّوم السماوات والأرض، وفاض القلب بهذه النجوى:

مناجاة قلب كسير

أ.د. محمد سعيد رمضان البوطي*

وكيف يكون كسيرا وأنت النور الذي يشعّ في حناياه والأمل الذي يخفق به ويعيش عليه!..

بل كيف لا يكون كسيرا وقد ذلّ لعظيم سلطانك، ودان لسابق حكمك وقضائك!..

بلائي به محض العبودية لك، والتجاؤه إليك، محض رعاية وتوفيق منك. فلأيّهما أدين بالشكر، وعلى أيهما أبذل التحمّل والصبر، وأقسى ما في كلّ منهما نعمة منك لا أستحقّها، ويد جميلة لا قبَل لي بأداء شكرها.

مولاي!

لئن نسيتْني أفراحُ الدنيا، فإن عزائي بما فاتني منها عظيم ما ألقاه من الأنس بذاتك، والأملِ في رحمتك. ولئن أبكتْني صروف الليالي والأيام فإن عزائي معها بكائي على أعتاب لطفك وبين

يدي ربوبيتك. وشتان بين دموع اعتصرتْها الآلام من العيون، ودموع استجابتْ لذلّ العبودية فانحدرت تبكي لمن خلق الوجد في القلوب، وأودع الحرقة في الدموع.

مولاي!

أأشكرك على ما أوليتني من نعمة الصبر على البلاء، أم أشكرك على ما أوليتني بذلك من سعادة القرب إليك ولذّة المناجاة لك؟.. جلّت حكمتك يا سيدي، وصدق ما قاله الواصلون: "إنّ في كلّ جلال جمالا، وفي كل ابتلاء منّة ولطفا". وهل في اللطف ما هو أعظم من انصراف العبد إليك، وتحوله عن الأغيار إلى ملازمة بابك الكريم.

إلهي!

أي شيء يوحشني من الدنيا فقْده بعد أن رأيتك أمامي، وأنست بك في سري وجهري؟!. بل أي منّة منك أعظم وأجلّ من أن تُزيح عني حجابا كان قد شغلني عنك، فشُغلتُ بك عنه بما أكرمتَني من الاعتصام بك والتضرع إليك؟..

أجل يا سيدي... لقد ذهب موسى عليه السلام ليقتبس نارا، فعوّضتَه عن ذلك بعظيم نجواك!.. نعم، إن القلب قد يتألم ولكن ما ألذَّ الألَم الذي يذيق صاحبه طعم العبودية لك، وحلاوة الرضا بحُكمك!..

ولكني يا مولاي، أجدني قد تطاولتُ بهذا القول إلى مكانة ليس لي شرف الدنوّ إليها. وما أنا –وحقك– في المزلة ممن يَحسُن بهم أن يقولوا: "عذِّبْ بما شئتَ، غيرِ البُعد عنك"..

إنني يا مولاي عبد إحسانك وفضلك، أفرّ من كل ضائقة إلى ظلال رحمتك، وأرتمي هاربًا من كل بلاء أمام أعتاب جودك. حسبي أن أتعلق في الخوف من كل كرب بنجوى أحبِّ خلقك إليك: "ولكن عافيتك أوسع لي". وبدعاء نبيك الكليم: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾(القصص:٢٤)، وبنداء رسولك الصابر الأواب لربّه: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾(الأنبياء:٨٣).

وكيف لا أتعلق بفضلك وأطمع بعافيتك، وأنت الذي لم تُقصني عن مائدة إحسانك في يوم من حياتي، ولم تقطع عني وابل رحمتك في لحظة من عمري؟!.. أم كيف أركن إلى البؤس والضيق، وأنت الذي عوّدتَني العطاء، ونشّأتني في ظلال الرخاء؟!.

أعوذ برحمتك التي غمرتَ بها وجودي كله، من أن تبدّل بها شدة لا قبل لي بها، أو بلاء لا صبر لي عليه.

إلهي!

سألوني عن وجودك، فقلتُ لهم: "متى عرفتم أنفسكم رأيتموه، ولولا ضلالكم عن كَينونتكم لَما افتقدتموه".

إن الذي ينظر إلى العالم ذاهلا من وراء منظار، جدير به أن يفتقد منظاره ولا يراه، ومهما أدار عينيه فيما حوله فإنه لن يعثر عليه، حتى يهتدي إلى ذاته ويتحسس المنظار القائم أمام عينيه.

وسألوني عن أقدس سرّ من أسرارك، فقلت لهم: "إنه القلب!".. يخفق ويحسّ، ويحنّ ويئنّ، في عالم لا تطوله فيه يدُ المال والمتاع، ولا الصَّنعة والخداع، ولا الدنيا وزخرفها، أو المادة وقيمها!..

عروش الدنيا وممالكها، وبطشها وسلطنتها.. كل ذلك أقلّ من أن يقاوم خفقة من خفقات قلب محبّ!..

ونعيم الدنيا وأفراحها، ولهوها ولذائذها.. كل ذلك أقلّ من أن يخلق لمعةَ فرحٍ في قلب حزين!..

يمضي الناس في معالجة مدَنياتهم وحضاراتهم، ويتسابقون إلى دنياهم وملاذهم، وتبقى هذه القلوب الخفاقة فوق ذلك كله، لا تطوّرها يد الحضارة ولا تغيرها آثار المدنية.

فهل في أسرار ما صنَعه الخالق شيء أقدس وأعجب من القلب.

وسألوني يا مولاي عن أبدع مخلوقاتك وأجمل آثارك، فخرجت بهم أجتلي مغاني الربيع!..

ولما توسطنا السفوح الخضر، وهي ترتجّ وتموج بما انبسط فوقها من أفانين الخضرة الفاتنة، والرياحين العطرة، والأزاهير التي تذوب وراء جمالها العين، ناديت بأعلى صوتي: ﴿فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللهِ كَيْفَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾(الروم:٥٠)!..

انظر إلى آثار رحمة الله، كيف بدّلت وحشةَ الأرض أُنسًا، وحوّلت جدبها اخضرارًا، وأخرجت من قسوتها رقة تشمل بها النفس، وفتنةً ينتشي بها القلب!..

بالأمس كنتَ تنظر إلى هذه الأرض وهي بلقع تلفّها وحشة اليأس، واليوم تبعث العينَ فيها وإذا هي تفيض حياة ونضارًا، وتزدان برونق الأمل!..

بالأمس كان يُبصر فيها العاشق الملتاع صدى لوحشته وعذابه، واليوم يجلس إليها ليتّخذ منها نجيّ أشواقه، وسمير آلامه ومبعث آماله.

أجل.. ﴿فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللهِ كَيْفَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ (الروم: ٥٠).

مولاي!

هل كان فيما أبدعه صُنعكَ هذا -ما بين شتاء وربيع- إلاّ صورة رائعة أبرزتَ فيها -بعظيم إبداعك- كيف يتحول اليأس المحرق إلى أمل خافق منعش، وكيف تُنشَّأ الحياة المضيئة من جوف ظلام ميت!..

جلّت حكمتك وعظمت رحمتك يا مولاي... متّعتَ أعين العشاق بالورود الحمراء، وأنطقتَها لهم بلغة من الجمال تتقاصر عنها لغة الكلام، حتى يكون لهم من ذلك عزاء عن الجمال الذي افتقدوه، وسلوًى عن الأمل الذي خسروه!..

أنعشتَ نفوسَهم بعبق الرياحين وعطر الزهور، حتى يغسلوا أفئدتهم بها من غبار الكآبة وألم الهجران!..

أقمتَ لهم من مرأى الخمائل بكل ما زيّنتَها به من فتنة وجمال نديمًا يسامرهم وجليسا يؤنسهم ونجيا يتأثُر لأنّاتهم ويتمايل لآهاتهم!..

إلهي!..

أي شيء يوحشني من الدنيا فقْده بعد أن رأيتك أمامي، وأنست بك في سري وجهري؟!. بل أي منّة منك أعظم وأجلّ من أن تُزيح عني حجابا كان قد شغلني عنك، فشُغلتُ بك عنه بما أكرمتَني من الاعتصام بك والتضرع إليك؟..

وأبدعتَ لهم ذلك كله -يا مولاي- من جوف أمّهم الأرض!..

ألا بوركتِ أيتها الأرض، مصدر سلوى لأبنائك الذين لا تزال الحياة تحرّكهم على ظهرك ولْيزدك الله رحمة بنا وحنانًا، يوم يعيدنا الردى منك إلى الأعماق.

ورأيتُ يا مولاي، أشتاتا من الناس يسرحون ويمرحون خلال تلك الآثار كما تسرح الدوابّ والأنعام!.. وقد اتخذوا من دونك حجابا، وجعلوا من نعمائك شغلا لهم عنك، ومن عطائك سببا لكفرانهم بك!..

ورأيتُهم يسجدون للمرآة التي يسطع فيها خيال الشمس، وهم عن وجود الشمس وحقيقتها غافلون!..

ورأيتهم قد فُتنوا بعبق الرياحين وصور الورد والزهر والياسمين؛ ولكنهم عموا أو تعاموا عمن أبدع الرائحة في العطر، وخلق النشوة في الخمر، وأخرج الورود من أكمامها، وفجّر الخضرة من جذورها!..

ورأيتُكَ يا مولاي، تشملهم جميعا بالمنّة والعطاء، وتوليهم جميعا الرحمة والنَّعماء. تلك هي رحمتك بمن قد نسيَك وتاه عنك. فكم هي رحمتك -ترى- بمن عاش يرقب فضلك ويستمطر جودك وإحسانَك؟!..

أيتها الرياض النّضرة!..

أيتها الورود الناعمة الضاحكة!..

أيتها الروائح المسكرة العبقة!..

لَشدَّ مَا يطربني وينعشني أن أجدني غريقا فيما بينكم، ملفوفا بتَحنانكم، ولكني ما انتعشت منكم بشيء أكثر من الأمل!..

الأمل!.. أقرؤه في تماوج العشب مع الرياح السارية، وأجده في انبعاث روائح منعشة شتى من تلك الورود النضرة، وأسمعه من حفيف الأغصان وتصفيق أوراقها الرقيقة الخضرة.

أجل.. إنه الأمل الذي صورتْه يد الخلاّق، إذ أنبَتَكم من طوايا أرض مظلمةٍ جامدة؛ أبدع حياة الأرض من موتها، وأخرج زينة الدنيا من كآبتها، وأظهر أرقّ ما في الكون من قسوته وصلابته!..

يا من استوى في خلقه الأملُ واليأس، وتلاقى في تقديره الموت مع الحياة!..

يا مُنشئ النور من الظلام، ومبدع الفرح من الأحزان!..

يا من هذا سرّ لطفك وطعم إحسانك وحنانك؟..

يا إلهي!

كيف أيأس إذاً وأنت ربّي، أم كيف لا يُنعشني الأمل وأنت حسبي؟!.. ■

(*) كلية الشريعة، جامعة دمشق / سوريا.



درويش في بلاد "الأناضول"



أدب

أديب إبراهيم الدباغ*

سالك طريق... مُستَهامٌ لا يفيق... حامل هوًى... مُتعَبُ خطوٍ... شاردُ لُبٍّ... أخو سفَرٍ... أشعثُ أغبَرُ.. ما استظلَّ بظلٍّ... ولا بأرضٍ أقام... ولا بمنزلٍ نزل... إذا حَلَّ ارتحل... فلا أراحَ ولا استراح... على نفسه علا... وسلالمَ الروح ارتقى... وبسَنَا أشواقه اهتدى... وبساطَ الأكوان طوى... وفضاءَ الكشف والعيان اعتلى...!

فادْعُ -يا درويشُ- همَّتكَ... فالطريق لا زالت طويلة... مُنداحَةَ الآفاق... مَهُولَةَ الأمداء... فامتطِ متنَ عزيمتك... واركبْ جوادَ إرادتك... وإيّاك أنْ تَنْصَبَ.. وخباءَك وسْطَ الطريق تَنْصب... وعن عصا ترحالك تتخلّى... فذاك موتُك... فَذاك موتُك...!

يا "درويش"... يا قلبًا ذابَ حتّى عَذُبَ... يا فؤادًا هَامَ وعشق... يا حزنًا تعالى وتزكّى... والعالمَ احتوى... والإنسان بكَى... وعلى ضَيَاعه نَاحَ وانتحب...!

يا "درويش"... يا حامل حيرة الإنسان من قديم الزمان... مَنْ أنا...؟ وأينَ أنا...؟ ولماذا أنا...؟ وتظلُّ وراء الجواب تجري... قطعتَ الفيافي والقفار... وجُبْتَ البحار... وعلوتَ الجبال... وسألتَ الشجَرَ والزهر... والنجم والقمر... وغبْتَ في غاب الأقلام... وَخُضْتَ في مداد العقول والأذهان... فَزِدْتَ ضياعًا... وفضْتَ حيرةً... فلا أنتَ عرفْتَ.. ولا أنتَ وصَلْتَ...! ولكنَّ صوتًا من ذاتِك يأتي: "اِشْحذْ ذِهْنَكَ تَسمَعِ الجواب... وتدركْ مَبْعَثَ السؤال...

لك وحدك أستطيع أنْ أُفضي بجميع مكنونات صدري... لكَ وحدك أفتحُ أبوابَ كنوزي... وبين يديك وحدك، أنثر دُرَرَ علومي ومعارفي...!

سمعتُ مَرَّةً "درويش الأناضول" يحدثُ فيقول:

"من الطريق تعلّمتُ كيفَ أعيش الخطر... وأمشي على حاجز الموت... آنسًا بهدير العواصف... ومستضيئًا ببوارق الرعود... نابذاً عيش الهامدين... رافضًا سلامة العاجزين... أولئك العَوَّامين فوق الخواء... الناكصين عن مطاولة الأعماق... المشفقين من السباحة ضدَّ التيار...!

ومن الطريق تعلمتُ كيف أنقذ روحي من الهاوية... وكيف أخرق بها السبْع الطباق... وكيف أرتقي الأسباب... وأعلو على الأسَى... وأستعذب الألم... لأحظى بالوصل وأنال المراد...!

ومن الطريق تعلمتُ كيف أخاف نفسي... وَأفْرَقُ من طغيان وجودي... وأحذر من ربوبية أَنايَ... وأتجنّب خيالات وهمي... وشطحات فكري... ومزاعم هواي... فلا أرى في الكون غيري... ولا في العالم سواي... وكأني أنا الفِكْرُ والمُفكِّرُ والمُفَكَّرُ به... ولا شيءَ غير ذلك..! وهذه هي الطامة الكبرى!

وعلّمتْني الطريق إذا كبوتُ نهضتُ... وإذا تأخّرتُ تقدّمتُ... وإذا فَتُرتُ هجتُ... وإذا خمدَ لهيبُ روحي أَوقدتُ... وإذا نِئْتُ

بقيدي كسرتُ... وإذا احتجبتُ خرقْتُ... وجهلي قهرتُ... وســـفينتي أطلقتُ... ونفســـي في هادر الروح قذفتُ... وربِّي ناديتُ... أيدني –يا ربُّ– وثبتـــني... وعلى معرفتك أعنّي... وعنـــك لا تبعـــدني... وبالقرب منك أبقـــني... وزدني صحوًا ووعيًا... ومسكنةً وفقرًا... فكيف تبارحني الحياة وأنتَ حياتي... وكيف يخونني حزمي وأنتَ حزمي وقوتي...؟!

ألفَ مرَّة... في اليوم والليلة... أموتُ في العشـــق وأحيَا... أُوجَدُ وأفنَى... يا رماد قلبي المحترق... اِجمَعْ ذَرَّاتك... وقُمْ من جديد... فؤادًا فتيًا... عاشقًا أبديًّا... واقطع مسافات الوجود... وَاضْوِهِ تحت جناحـــك... وعُدْ إلى نفســـك منقِّبًا عن جواهر علومك... وارتفع ثُمَّ ارتفع... لتصبح نزيل علوم الســـماء... وأسرار الأرض...!"

ســـريتَ حيثُ سَـــرَتْ بك دروب "الأناضول"... طرقتَ أبـــواب الجامعـــات غير هيـــاب... واعتليتَ أســـوار المدارس والمعاهد... وجُبْتَ الأســـواق... واقتحمـــتَ المقاهي والمطاعم والمعامل... فأثرتَ اســـتغرابًا واستنكارًا... وألفُ سؤال وسؤال دار في الأذهان... ما رأينا في الدراويش درويشًـــا كهذا... ماذا يفعل عندنا... ولماذا يخترق صفوفنا.. ويقتحم علينا مجتمعاتنا...؟ يا ويحه... يا ويحه...!

ويأتي من بعيد صوت... اِنْتَبِهْ يا "درويش"!... فالليل سَاجٍ... والنّجمُ في الأُفُقِ باكٍ... اِلبَسْ جَنَاحَ الليل... وبجلبابه تجلببْ... ثُمَّ قُمْ تضَرَّعْ... وألطافَ الله تَشَـــرَّبْ... فالْمَلأُ الفرعونيُّ بك يأتمرون... ليُبْعدوك أو ينفوك... وخارجَ التُّخُوم يقذفون...!

تجرَّعْ يا "درويش" سُمُوَّ أحزانِك... واعْتَنِقْ طُهْرَ آلامِك... واســـتمطِرْ بَرَكات غُربتك... فقد انكســـرتْ أقْفال العقول... وتحطَّمَتْ أَغْلالُ النفوس... وانكشفَ المستور... وسطع النور... وانفجر الينبوع... وأشرق سَنَاءُ الكتاب المهجور[1]... من القلب المبعوث[2] رحمةً للعالمين... ■

(*) كاتب وأديب / العراق.

الهوامش

(1) المقصود: القرآن الكريم.

(2) المقصود: الرسول ﷺ.



إليه تعود

يا سالك الطريق

يا رجلُ يا مقدام...

لا تبالِ الهموم والأحزان...

ما دمتَ على الطريق سائراً،

وإليه ماضياً... فلا تبالِ الصعاب،

فأنت إليه عائد...

فإذا ما وصلتَ... أخذك إلى كنفه،

ومسح آلامك... وكفكف دمعك،

وفي حظيرة قدسه آواكَ ونَعَّمك...

وبمحبته أكرمك...

***



مراكز النشاط الاقتصادي في الدولة العثمانية

د. ناظم إينتبه*

إن شبّهنا الدولة بجسم مخلوق حي، فإن بقاء هذا الحي مرتبط بعمل أجهزته المختلفة مثل الجهاز التنفسي وجهاز الدوران، وجهاز الإفراغ...الخ، بالإضافة إلى توفر الشروط الضرورية الأخرى.

فإن نظرنا إلى الدولة العثمانية من هذه الزاوية، نجد أنها لم تنشغل فقط بالحياة الدينية وبالأمور العسكرية والحربية وبالتعليم والتربية فقط، بل كانت تملك تقاليد تجارية ومؤسسات تجارية عريقة. وطوال أكثر من ستة قرون لم ينشغل المسؤولون عن إدارة الدولة بالحياة الدينية وبناء القلاع والحصون والثكنات العسكرية والمدارس والجوامع فقط، بل برزوا أيضاً في وضع تقاليد عريقة للتجارة وللمؤسسات التجارية، فبنوا المراكز التجارية والخانات والأسواق الكبيرة ومراكز كبيرة على الطرق الرئيسية للتجارة لاستراحة المسافرين والتجار والقوافل. وذلك لتشجيع التجارة وتوسيعها وفتح الأبواب أمامها. وكان هناك مراكز تُجمع فيها البضائع التجارية في الدولة العثمانية الواسعة الأرجاء وتقوّم قيمها وتُثبت أسعارها، أي كانت تعمل عمل البورصة في أيامنا الحالية. وكان يطلق على هذه المراكز التجارية اسم "بَدَسْتان" (bedesten).

تأسست هذه المراكز أولا في مدينة "بورصه" وفي "أدرنه" ثم انتشـــرت منهما إلى أرجاء الدولة العثمانية. يأتي "بدَسْت" بمعنى "السوق، والبورصة، والمركز التجاري". ويأتي جذر هذه الكلمة من العربية والفارسية من كلمة "بازِستان"، أي المكان الذي تُباع وتُشترى فيه الأقمشة. كما أطلق على "بدَست" اسم "قيصرية" أحيانا، ومعناها "داخل القلعة". كانت "بَدَسْتَانْ"، مركز التجارة بين المدن وكذلك بين الدول، كما كانت بمثابة المراكز التجارية في المدن، فتعد من أهم الأبنية في كل بلدة.

التجارة الدولية

كانـــت التجارة الدولية في القرن الرابع عشـــر بيـــد البرتغاليين والجنويّـــين (البنادقة). وكانت البضائع الثمينة تتجمع في الموانئ، حيث تتم التجارة فيها عن طريق النقل البحري بواسطة السفن. كانت الدولة العثمانية على وعي بأن ازدهار التجارة في أي بلد يســـاعد على ازدهار ذلك البلد، وتخلفها يعني تخلف ذلك البلد. لذا قامـــت بإحياء طريق الحرير التاريخـــي، وأمّنت بذلك تحول التجـــارة إلى الطريق البري مرة أخـــرى. لذا بنت الخانات -أي الفنادق- ومراكز التجارة على الطرق التجارية المهمة. وأنشأت هذه المراكز في داخل المدن أيضاً. واستطاعت الدولة -بتحقيقها الأمن والأمان للتجارة والتجار في أراضيها الواسعة وتيسير سبل التجارة أمامهم- الســـيطرة على التجارة الدولية بدءً من القرن الرابع عشر حتى القرن السابع عشر.

البدستانات تختلف عن الخانات وعن "كَرْوان سَرايْ" (وهي أبنية محمية ومقامة على الطرق الرئيســـية لاســـتقبال القوافل). فقد اســـتعملت الخانات بدءً من القرن الثالث عشر وحتى القرن الخامس عشر لتأمين حاجات المســـافرين والتجار. وأطلق اسم "بَدَسْـــتان" في هذا العهد على هذه الخانات أيضاً. ولكن اقتصر اسم الـــ"بدستان" في القرنين الخامس عشر والسادس عشر (عهد نضوج الدولة) في جميع المدن الكبرى على مراكز البورصة والتجارة فقط، واقتصرت الخانات على أماكن استراحة المسافرين.

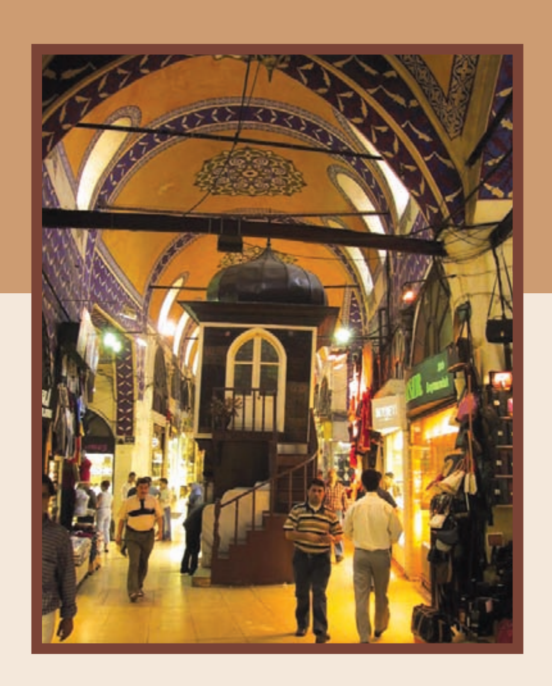
"بَدَسْتان" والعمارة

كما قلنا فإن الـــ"بدستان" كانت مباني تجارية ظهرت عند ظهور الدولة العثمانية وتوســـعها. ولم يكن فنها المعماري يشبه مثيلاته في حضارات الأناضـــول وفي الحضارة البيزنطية القديمة، كما لم يكن يشبه "القيصرية" وهي الأسواق المفتوحة وغير المسقفة والتي كانت موجودة في جنوبي شـــرق الأناضـــول؛ بل كانت تحمل الســـمة المعمارية للمدن "العثمانية-التركية" مثلما كانت المراكز والمباني الدينية والتجارية الأخرى الكبيرة (كجوامع الســـلاطين الكبرى) تحمل سمتها الخـــاص بها. كانت هذه المباني تحتل مركز المدينة وترمز إلى أنها مدن عثمانية.

كانت الـــ"بدســـتان" في الدولة العثمانية مربعة أو مستطيلة الشـــكل. لها قبب مغطاة بالرصاص، وتنقسم إلى أجزاء وأقسام لتكون صالحة لأفضل استخدام واستعمال، ولها جدران سميكة من الحجر، وترتفع في وسط المدينة وكأنها حصن أو قلعة، وتشرف بأبراجها علـــى المدينة من عل، ويمكن رؤيتها من بعيد والتعرف عليهـــا. كان لها في العادة باب أو بابـــان، وأحياناً أربعة أبواب رئيســـية. وكانت مفتوحة على الشـــارع أو الشوارع الرئيسية للمدينة. كانت الـــ"بدســـتان" مقسمة من الداخل إلى ٤-٢٠ قسما مربع الشكل، ولكل قسم قبة فوقه. ويدخل الضوء من نوافذ صغيرة موجودة في أعلى الجدران. وفي خارج بناية الـــ"بدستان" تلتصـــق جدران الدكاكين بها، كمـــا تنتظم الدكاكين ومحلات العمل على جانبي الطريق الخارج من الـــ"بدستان". كما توجد حول هذا المجمع دكاكين مربعة أو مستطيلة الشكل.

تكون مداخل الـــ"بدســـتان" في العـــادة مرتفعة وفخمة، كمداخـــل المعابـــد، وجدرانهـــا الحجرية مزينة بأشـــكال فنية وزخارف. أبوابها من الحديد أو من خشـــب الأبنوس ومزخرفة كذلك بزخارف حديدية أو خشـــبية. ودكاكينها مصانة جيدًا. والبناية تحتوي على دكاكـــين وعلى المخازن العائدة لها. وقبابها مغطاة بالرصاص لحفظ البناية من تسرب مياه الأمطار والثلوج. لذا فإن بنايات الـــ"بدستان" كانت تحمل طابعًا عثمانيًّا متميزاً. ولكونها مبنية من الحجر كانـــت أيضاً رمز المتانة والقوة والعمر الطويل.

وفي الخانات كانت السلالم موجودة على يمين ويسار المدخل مباشرة وتؤدي إلى الطابق الثاني بـــ(٢٠-٣٠) درجة. وفي القسم الأمامي من الطابق العلوي يوجد "رَواق"، وفي القســـم الخلفي توجد حوانيت أو متاجر. وبينما تغطي القبب أعلى الرواق تكون سقوف الحوانيت على شكل أقواس وقناطر. وكل حانوت عبارة عن غرفة واحدة. أما الحوانيت في الأركان فيكون كل منها عبارة عـــن غرفتين أو ثلاث غرف. ويوجد أيضاً رواق أمام المتاجر في الطابق الأرضي. وتحت هذه الحوانيـــت والمتاجر، توجد مخازن لخـــزن البضائع. وفي هذه المخازن توجـــد صناديق حديد تحفظ فيهـــا الأمتعة الثمينة. ويذكر "أَوْليـــا جلبي"الإصطبلات الملحقة



بهذه "الخانات"، حيث تستريح فيها الحيوانات التي تحمل البضائعَ والنـــاسَ في القوافل. والإصطبل الموجود في "قوزاخان" في مدينة "بورصه" يعد أنموذجاً لإصطبل الجمال، حيث اســتعمل القسم العلوي منه لاستراحة المسافرين ولخزن البضائع. وتوجد مواقد في غرف الطابق العلوي، وترتفع المداخن من جانب القبب. وتوجد ميضأة في وسط باحة الخانات، وفي المؤخرة يوجد مسجد.

مبادئ عمل مراكز الـ"بدستان"

كما توجد حاليا قواعد ومبـــادئ معينة في المراكز التجارية وفي البورصـــات وفي المناطق الصناعية التعاونيـــة حددتْها القوانين، كذلك كانت لمراكز الـــ"بدســـتان" في الدولة العثمانية قواعد يجب العمل بها. فهي تؤسس أولاً إما بفرمان من السلطان أو بأمر من وزير. وعندما يتم بناؤها تصبح مركز جذب للتجار الأغنياء الذيـــن يرغبون بالتعامل في مراكز تجاريـــة آمنة. ويقول المؤرخ التركي المعروف "خليل إنالجيـــك": "كان من القواعد المعروفة أن الـــ"بدستان" تعد مركزا للتجارة في المدينة، وكذلك مركزاً للتجارة بين الأمم." لذا نرى أن أسواق الـــ"بدستان" ومراكزها في الدولة العثمانية كانت طوال مئات الســـنين محلاً لزيارة آلاف التجار القادمين من إيران والهند وأوروبا، ومحل تعارفهم ولقائهم وإقامتهم، ومحل بيعهم وشرائهم. وقد أنشأ السلطان محمد الفاتح بفرمان منه، "بدستان إســـطنبول" والسوق المحيطة بها بعد الفتح مباشرة، لتكون مركزاً تجاريا كبيراً وآمنا على طريق الأناضول – الروملي ولمدينة إسطنبول كذلك، حيث استطاعت هذه السوق استيعاب الفعاليات التجارية الكبيرة آنذاك.

ومع أن جزءً من إيجار الـــ"بدســـتان" والخانات كان يذهب إلى باني هذه البنايات، إلا أن الجزء الأعظم منه كان يصرف لبناء الجوامع والمدارس الدينية والكليات ومراكز توزيع الأطعمة مجانًا للفقــــراء، أي كان يصرف لأعمال البر والخير. فقد صرف إيجار الـــ"بدستان" التي شيدها السلطان "محمد جلَبي"، في مدينة أدرنه عام ١٤١٨م، لتعمير جامع "أسكي جامع"، وإيجارُ الـــ"بدستان" التي شـــيدها الســـلطان محمد الفاتح وكذلك إيجار سوق "قبالي جارشي" للصرف على أياصوفيا التي حوّلها من كنيسة إلى جامع. وصرف إيجار الـــ"بدستان" التي شيدها السلطان بايزيد الثاني في مدينة بورصه لتعمير جوامع إسطنبول ومراكز مساعدة الفقراء.

التجارة والنشاط الاجتماعي

لم يفصل العثمانيـــون الحياة التجارية عن الســـاحات الأخرى للحياة. واستفادوا في تأسيســـهم هذا التوازن بين مناحي الحياة من خزين التجارب الإســـلامية الطويلة الأمد، والتي بدأت من عهد المدينة المنورة في حياة الرسول ﷺ، واستمرت طوال عصور عديدة وفي بلدان إسلامية متعددة.

كان التجار في العهد العثماني على نوعين: التجار المتجولون، والتجار المقيمون في المدن. فكانت مباني الـــ"بدستان" محل عمل التجار المقيمين في المدن ومركزاً لتعيين أسعار البضائع أيضاً، أي كانت تعمل عمل البورصة الحالية. كما كانت دائرة لاســـتيفاء الضرائب. وكان الموظفـــون الرسميون الذين يعيّنون الأســـعار ويســـتوفون الضرائب يقيمون هنا. لذا لم يكن يســـمح بزيادة الأســـعار خارج الحد المعقول، أي لم يكونوا يسمحون بالتعامل بـــ"السوق السوداء".

كانت كل "بدستان" تشكل نواة الأسواق الكبيرة. وكانت جميع أنواع السلع والبضائع تباع وتشترى فيها مثل أسواق "سوبر ماركت" في أيامنا الحالية. كان بعض هذه المراكز التجارية مراكز لأنـــواع معينة من البضائع ولمنتوجات أصحاب مهن معينة. مثلا هناك مركز للصياغة، أو لبيع السجاجيد أو الأقمشة أو البهارات أو الكتـــب أو للعطارين، وكان يوجـــد حولها بياعو الحاجيات

إذا تجوهر الإيمان في القلب أنقلب إلى منجمِ حب ومحبة... فأنّى لمعدن الكراهية أن ينجم فيه... فكما الشيطان في الكراهية مغمور فأنت -يا مؤمن- بالمحبة معجون...

***

اليومية من الأغذية كالفواكه والخضروات والطحين والملح... الخ. أو من أنواع الوقود كالحطب والفحم.. أو من المواد الخام كالدهون والزيوت والأصباغ.. وكذلك كان أصحاب الحرف الأخرى كالخياطين وأصحاب المطاعم وصناع الخزف..الخ، يزاولون نشاطهم هنا. كما كانت هذه الأسواق تضم الأماكن الضرورية لحاجات الناس كالمساجد وأماكن الوضوء وأماكن القراءة والمقاهي والحلاقين والحمامات...الخ.

كان أصحاب الحرف المختلفة يعملون في الـ"بدستان" كعائلة واحدة، وكانت لهم منظمات ذات تقاليد عريقة ومستقرة مثل نقابة "الأخوة" (Ahîlik). و لم يكن يؤخذ إلى هذه النقابة من أصحاب المهن من لم يمر بمرحلة التدريب والتعليم التي تتدرج من مرحلة المتعلم الناشئ أو العامل المبتدئ إلى المتدرب إلى المعلم (المحترف). كان يتم تعليم الشباب المبتدئين الحرف المختلفة في ظل تدريب وتعليم يأخذ بنظر الاعتبار التدريب المهني والتجاري مع الحرص على ترسيخ مفاهيم أخلاقية أهمّها أن يكون كل منهم إنساناً محبًّا للخير وجاراً حسن الخلق، أي يتلقون تدريباً وتعليماً أخلاقيا أيضاً. وكان يتم ترقية هؤلاء الشباب من صنف "المبتدئ" إلى صنف "المتدرب"، ثم إلى صنف "الأستاذ" أو "الأسطة" بالتعبير السائد آنذاك في مراسيم احتفالية. وهكذا كانت "بدستان" تنشئ كادرها وتحافظ عليه.

كانت للـ"بدستان" أربع وظائف مهمة:

١-تعيين أسعار البضائع.

٢-فرض الضرائب على البضائع واستيفائها.

٣-خزن البضائع والسلع الغالية والثمينة العائدة للدولة أو للتجار، مثل الذهب والمجوهرات والأقمشة الغالية، والوثائق المهمة، حيث كانت هذه البضائع تحت ضمان الدولة، فتخزن بشكل آمن، ثم تعرض للبيع.

٤-كونها مقرًّا للتجار المحليّين، حيث كانوا يقومون بأنشطتهم التجارية، ومنها كانت تنطلق قوافلهم إلى البلدان الأخرى.

كان لكل "بدستان" سَريّةُ أَمن خاصة بها، وشخص مؤتمن. وكانت الأموال المفقودة (أي الأموال التي فقدها أصحابها) تبقى عنده مدة معينة. فإن لم يظهر صاحبها تسلم لبيت المال. كما كانت تودع عنده أموال اليتامى حتى يبلغوا سن الرشد. كما كانت الـ"بدستان" تقوم بوظائف شبيهة بوظائف البورصة التجارية في أيامنا الحالية (بورصة القطن أو بورصة الزبيب مثلاً).

كانت الـ"بدستان" في بعض المدن مركز عمل التجار الذين يقومون بتجارة الأقمشة الثمينة. وكان كل منهم يملك فرمانًا من السلطان وأمرًا من القاضي كضمان وتأييد له عند قيامه بهذه التجارة. وكانت أي تجارة سِرّيّة تجرى خارج الـ"بدستان" تُعد تجارة غير قانونية ومنافسة غير شريفة بالنسبة للتجار الموجودين في الـ"بدستان" الذين يدفعون الضرائب بانتظام. فمثلاً، حدث في عام ١٦٠٩م، أن طرق سمع تجار "بدستان" أن بضائع معينة (مثل العطور) تباع سراً في منطقة "غلطة" إلى العطارين، فتقدموا بالشكوى إلى السلطان وتمت معالجة الأمر. أما سيطرة تجار الأقمشة الذين هم أحد عناصر الاقتصاد المضبوط رسميًّا، فقد استمرت حتى أواسط القرن السادس عشر، حيث صدر قرار بالسماح لتجارة الأقمشة خارج الـ"بدستان" ما لم يكن هناك قرار من الحكومة بالمنع.

نعتقد أنه من المفيد إجراء تحليل مقارن بين الـ"بدستان" التي كانت تحتلّ مكانًا مرموقًا في الحياة التجارية في الدولة العثمانية، وبين المراكز التجارية الحالية. فهذا مفيد، ليس من الناحية التاريخية فقط، بل من الناحية التجارية والاجتماعية كذلك. فمن ناحية، هناك فائدة في ضبط الفعاليات التجارية ومراقبتها، وأن تكون هذه الفعاليات على أساس مشروع وتُراعى فيها الحقوق؛ ومن ناحية أخرى، فإن عدم السماح للشخص بالعمل التجاري (إن لم يكن أهلا له و لم يدرّب بعد عليه) أيضاً من الأمور التي يجب مراعاتها. ■

(*) كاتب ومؤرخ تركي. الترجمة عن التركية: أورخان محمد علي.



فلسفة العمر

أ.د. فريد الأنصاري*

من أهم مصادر الجمال في الإسلام عقيدةُ اليوم الآخر، لكننا لن نذوق جماليتها إلا بعد معرفة ما "العمر"؟ هذا الامتداد الزماني الحاد المحدود، الذي يحد فترة حياة الإنسان، من الولادة إلى الممات.

العمر هبة إلهية كبرى.. إنه تجلٍّ من تجليات الحياة، بيد أن حقيقته نسبية ككل حقائق الحياة الدنيا. فليس فيه -إذا تفكرت- طويل وقصير، وإنما هو قصير كله. فمن حيث منطق الأشياء وطبائعها: كل ما ابتدأ لينتهي لا يكون إلا قصيرا. أليس كل الناس يموتون بعد سنوات من تاريخ ميلادهم؟! نعم، سنوات، وإن هي إلا سنوات، لا مئات السنين، ولا آلافها.

ثم إن المقارنة النسبية بين أعمار الخلائق المختلفة تبيّن لك نسبيّة الطول والقصر باعتبار آخر. فمن الخلائق التي تعيش مئات السنين أو آلاف، من غير البشر، كالأشجار، والجبال ونحوها، وكالشياطين -وقد قال إبليس اللعين: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۞ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ۞ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾(الحجر: ٣٦-٣٨)- إلى الكائنات التي تعمر الشهر والأسبوع واليوم، كبعض الحشرات، من مثل النحل، والذباب، والفراش. فلو نظرت إلى ما يشعر به المعمَّر مئات السنين أو آلافَها وهو ينظر إلى عمر الإنسان لوجدته يتأسف على شدة قصره، ويأسى على الإنسان الذي لم يمد له في عمره إلا قليلا، وهو لا يدري أن عمره هو أيضا بالنسبة إلى من هو أطول عمرا قصير جدا.

قصر الأعمار

ولو نظرت أنت -باعتبارك الإنساني- إلى أعمار الحشرات التي تعيش شهرا أو أسبوعا أو يوما، لأشفقت عليها من شدة قِصَرِ ما تعيشه من لحظات. ومما أرويه عن علماء الأحياء، أن ضربا

من الفراش يعيـــش دورته البيولوجية الكاملة، في مدة لا تتجاوز أربعا وعشرين ساعة. يكون بيضة، ثم يخرج منها، فيدبّ دودة، ثم يلتف حول نفســـه في غشائه، ليطير بعد ذلك فراشة، ثم يبيض ما شـــاء الله له ليخلّف ذريته بأمان، ثم يموت. كل ذلك في أربع وعشـــرين ســـاعة! وعندما كنتُ أقرأ أن بعض الحشرات يعيش ثمانيـــة أيام على الأكثر، كان يتبادر إلى ذهني أن تلك الحشـــرة إذا طال عمرها إلى اليوم الثامن، تنشـــد كما أنشد الشاعر العربي القديم:

سَئِمْتُ تَكَالِيفَ الْحَيَاةِ وَمَنْ يَعِشْ
ثَمَانِينَ حَوْلاً -لاَ أَبَا لَكَ- يَسْأَمِ!

واليوم الواحد بالنســـبة إلى وجدان الحشـــرة كعشر سنوات كوامل، لا فرق. ولو نظرت إلى ما أخبر به الله عن الزمان الكوني في القرآن، لأدركت أن الأعمار كلها بالفعل قصيرة.

الزمان الكوني وتجلياته

والزمان الكوني صور وأقســـام شـــتّى، يتجلى بعضها في بُعْده "المِعْرَاجِـــيّ"، وهو نوعان: الزمان الأمـــري والزمان الملائكي. فـــ"الزمان الأمري" هو المشـــار إليه في قوله تعالى: ﴿يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّـــمَاءِ إِلَى الأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾(السجدة:٥)، و"الزمان الملائكي" هو المشار إليه في قوله سبحانه: ﴿تَعْرُجُ الْمَلاَئِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِـــينَ أَلْفَ سَـــنَةٍ﴾(المعارج:٤). كما يتجلى في صورة "الزمان العِنْديّ" وهو المشـــار إليه في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾(الحج:٤٧). وهو زمان "الملائكة العندية" المشار إليها في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾(الأعراف:٢٠٦){س}. ثم "الزمان الأخروي" وهو الزمان الخالد السرمدي الذي لا ينتهي أبدا.

وفي ذهنك، أنـــت أيها المعمَّر مائة عام أنك عشـــت عمرا مديدا. نعم تماما كما عُمِّرَت الحشرةُ ثمانيةَ أيام، أو أربعا وعشرين ساعة.

ولك أن تتفكر في نســـبية الزمن عنـــد تقلّب أحوال النفس الإنســـانية، بين شتّى ضروب الانتظار مثلا.. عندما تنتظر حلول لحظة ســـعيدة لم يبق بينك وبينها إلا لحظات يســـيرة من دقائق معدودات.. تَشـــعُر أنها تمر ببطء شـــديد، وتقلـــق من "طول" الانتظار؛ فكأنّ وقع الدقائق تلك في نفسك عدة أعوام. وعندما تحلّ اللحظة السعيدة، تشعر -رغم طول مدتها بالنسبة إلى لحظات الانتظـــار- أنها قصيرة جدا، فكأن وقتهـــا يتصرم منك تصرما. الزمن نسبي.. وتلك هي حقيقة الأعمار.

الطول والعرض في الأعمار

والعمر -عند التفكر في الخلق الإلهي- هو حقيقة الإنســـان. إذ ليس المرء إلا بداية ونهاية! ســـاعة ولادة فســـاعة وفاة. ولكن.. شتان شتان بين عمر وعمر! ليس ذلك باعتبار الطول والقصر؛ إذ الأعمار كلّها قصيرة كما أسلفنا، ولكن باعتبار العرض والضيق، إذ قد يكون العمر طويلا -حســـب العد البشري النسبي- ولكن يكـــون ضيقا من غير ســـعة. كما قد يكون قصـــيرا بالاعتبار نفســـه، ولكنه عريـــض جدا، حتى لكأنه لا يـــكاد ينتهي أبدا.

وبيان ذلك بالمثال التالي: هَبْ أن العمر عبارة عن طريق يقطعها الإنسان، لها امتداد طولي وآخر عرضي. والعادة أن الإنسان إنما ينتبه إلى الطـــول؛ لأن ذلك هو المتعلق بمفهـــوم الزمن (الماضي والحاضر والمســـتقبل)، ولكنه قلّما ينتبه إلى العرض؛ لأن هذا إنما يتعلق بالأعمال والمنجزات خـــلال كل فترة من فترات الزمن.

فالإنسان في ســـيره خلال عمره نوعان: نوع يخطو دون أن ينتبه إلى عرض الوقت، فيلتهم من طوله ما هو مقدّر له، فلا يشعر ببركة العمر مهما طال، حسب العد البشري النسبي. ونوع ينتبه إلى العرض؛ ولذلك فهو إذ يخطو الخطوة الواحدة من عمره، لا ينتقل إلى الثانية حتى يخطو مثلها على عرض الطريق لا على طولها ليعيش باقي اللحظات التي هي من الخطوة الطولية الأولى نفسها التي خطاها.

وهكذا يبقى يخطو على عرض الطريق حتى يستوعب كل عرضها. وحينئذ فقط، ينتقل إلى أمام ليخطو خطوة أخرى على طولها، ثم يستأنف بعد ذلك خطوات العرض. فهو إذن يسير طولا وعرضا.

إن مفهوم العرض رمز إلى اســـتغلال الوقت استغلالا كاملا. لأن الناس -في الغالب- يعيشـــون اللحظة الواحدة، بما لا يكفي لعمارتها من الأشـــغال والأعمال. وربما أمضوها بالفراغ، وذلك هو ما يسمى بقتل الوقت. والعرض هو استنفاد كل الحيز الزمني للحياة بالمنجزات الإيجابية، والأعمال الحية التي تملأ رصيد العبد بالحياة الحافلة بالخير. وتلك هي "بركة العمر" المرجوة في الأدعية المأثورة. وإني إذ أذكر هـــذا المعنى أذكر وصف الله للجنة بقوله

سبحانه: ﴿سَــابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّـمَاءِ وَالأَرْضِ﴾(الحديد:٢١)، ذلك أن الجنة زمن خالد، فأنت تعيش اللحظة الواحــدة مرات عديـــدة، لا تنقضي أبدا. كما أن نعمها الوفيرة لا تســتنفد أبــدا. فذلك هو العرض ذو المعاني الجميلة.

أمــا الطول فهو يوحي بالنهاية والــزوال، ومن هنا لم تكن للأعمار قيمة مـــن حيث طولها أو قصرها. وإنما البليد من الناس من يتشبث بالطول الدنيوي. قال تعالى:

﴿قُــلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الــدَّارُ الآخِرَةُ عِنْــدَ اللهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَــوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۞ وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَـــا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللهُ عَلِيــمٌ بِالظَّالِمِينَ ۞ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْــرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَــنَةٍ وَمَا هُــوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّــرَ وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾(البقرة:٩٤-٩٦).

ذلك أن جشع الكفار وجهلهم بحقيقة الحياة، يجعلهم ينظرون للدنيــا من خلال بُعْد واحد، هو البعد الطولي. وهو بعد خداع، لأن الألف سنة فيه كاليوم لا فرق، ما دام الطول ينتهي إلى حد. والعدد في الوحدات الزمنية الدنيوية -كما رأيت- نسبي، ورب حشـــرة عاشـــت بضع لحظات، أو بضعة أيام، أزكى عمرا ممن عمر ألف سنة. ومتى كان الإنسان هو المقياس الحقيقي لوحدات الزمن؟!

العمر الطولي والعرضي

ومـــن هنا ذمّ الله الحياة الدنيا، من حيـــث هي طول يُتلهف فيه على المتع الزائلة، والمكاسب الفانية: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾(الحديـــد:٢٠)، وقال ﷺ: "مَا لي وللدُّنْيا..؟ ما أنا في الدنيا إلا كَرَاكِبٍ اسْـــتَظَلَّ تحت شَجَرَةٍ ثم رَاحَ وتَرَكَها!"(رواه الإمام أحمد والترمذي).

والأحاديث في ذم الدنيا والركون إليها كثيرة جدا، تملأ أبوابَ الرِّقَـــاقِ من كتب الحديث النبـــوي الصحيح. وهي لا تخرج في معناها عن التنبيه إلى خطورة النظر القاصر إلى الزمن، والتكالب على استنفاد لحظات العمر في عَدٍّ طولٍ لا يمنع من الموت شيئا.

والجميل في الأمر أن العرض لا ينقضي بوفاة الإنسان، بل يمتد حتى بعد وفاته؛ فلا تجده يشعر ذلك الشعور اليائس الذي يزلزل نفسية الكفار، إذ يشعرون عند ذكر الموت بهول "الفناء".

وقد رأينا كثيرا من علماء الأمة الإســـلامية ممن لم يعمَّر من حيث الطول إلا ثلاثا وخمسين سنة، كالإمام الشافعي رحمه الله، ولكن ها أنت تراه -بعد وفاته بأكثر من ثلاثة عشـــر قرنا- يملأ الدنيا بالحياة. فهذا مذهبه الفقهي يملأ عرض الدنيا وطولها، وهذه كتبـــه العلمية تملأ كل أعمار الناس. فهل عاش الشـــافعي بضعا وخمسين سنة فقط؟! إنه نظر قاصر لمفهوم الزمن إذن.

وكذلك الشـــأن بالنســـبة للإمام النووي رحمه الله، الذي لم تزل مصنّفاته هي مادة التربية الإيمانية لملايين المسلمين، ككتاب "رياض الصالحين"، وكتـــاب "الأذكار"، و"الأربعين النووية"، و"شـــرح صحيح مســـلم". فهذا الرجل العظيم قد عاش عمرا مباركا عريضا جدا، في خمس وأربعين سنة فقط.

ومن المعاصرين الإمام حســـن البنا رحمه الله الذي استشهد عن عمر لا يتجاوز الثلاث والأربعين سنة، ولكنه لم يزل يمتد في حياة الأجيال امتدادا قويا، لا تحدّه مقاييس الأعمار الفانية.. إنك تراه هنا وهناك حيا، يحرك الأحداث المعاصرة، ويهز الحياة الدينية والاجتماعية والسياســـية هزا في كل مـــكان. أولئك قوم عرفوا كيف يعيشون عرض العمر، ولم يأبهوا لطوله الكاذب.

وقـــد وجدنا النصوص القرآنية والحديثية تنبّه المســـلمين إلى هـــذا المعنى العظيم، حيث يملك المرء معه أن يعيش حتى التخمة، حياة حافلة بالحياة. يقول الله ﷻ في العبد يستثمر وقته في العمل الصالح: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَــبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِئَةُ حَبَّةٍ وَاللهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾(البقرة:٢٦١)، وهو ما فسره النبي ﷺ بقوله: "إلى سبعمائة ضعف، إلى أضعاف كثيرة"(متفق عليه).

ويموت الإنســـان لكن يمتد عرض عمره بعده. قال ﷺ: "إذا مـــات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له"(رواه مســـلم) وقال أيضا: "مَنْ سَنَّ في الإسلام سُنَّةً حســـنةً فله أجرُها وأجرُ مَنْ عَمِلَ بها بعده، من غير أن يُنْقَصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَــيْءٌ."(رواه مســـلم). وذلك كل فعل الخير الذي لا ينقطع أثره بالموت.

الحياة الآخرة

ثم إن الإيمان بالحياة الآخرة يشعر المسلم بأن الموت إنما هو مَعبر إليها، فلا يحس في وجدانه العميق بأنه ينتهي بالموت؛ فيعيش الحياة بذوق آخر، ملْؤه العمل والأمل في أن تكون أخراه أفضل من دنياه..

فيا لبؤس عمر يعيشه الإنسان وهو يشعر بأن الموت هو آخر المطاف! انظر إلى هذه الإشارة الإلهية في وصف نفسية الملاحدة المنكرين للبعث، إذ يقتلهم اليأس، ويدمرهم القنوط.

قال تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يَهدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾(الأنعام: ١٢٥)، وقال سبحانه: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾(الحج:٣١).

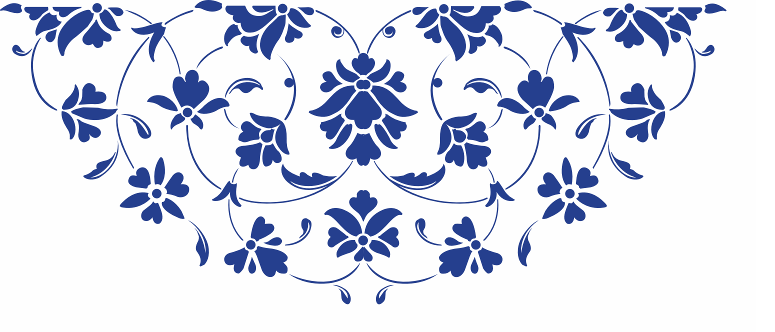
فانظر إلى هذا الزلزال النفسي، والشعور بالدمار والخراب في الحياة! الذي يملأ صدور الكفار، واليأس القاتل الذي يجثم على أحلامهم، لما يعيشونه من فقر شديد في العلم بالله. بينما يملأ هذا حياة المسلم سعة ورحمة، بسبب ما يتيحه له من آفاق أرحب، للنظر في الحياة والكون والمصير. وفقدانه يعني فقدان التوازن النفسي حتما في التعامل مع العمر.

هذا الرصيد الوحيد لدى الإنسان، الذي عليه أن يوظفه ليسعد أو ليشقى. ودون هذا الفضاء الواسع الرحب لا يوجد إلا اليأس القاتل، والخراب المدمر، وهو حال كل منكر للبعث من الكفار والملاحدة أجمعين. وما ذلك إلا لأنهم -كما وصفهم الله تعالى- ﴿قَدْ يَئِسُوا مِنَ الآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ﴾(الممتحنة:١٣).

ومن هنا فأنت ترى أن الباب الفسيح الذي يمد عمر المسلم بالاتساع، إنما هو مفهوم "الغيب".

هذا المفهوم الذي تقوم عليه العقيدة الإسلامية بأكملها. فهو الذي يملأ حياة العبد العامل أملا، ويغمر وجدانه حياة متدفقة أبدا، لا يحدها أجل، ولا تقطعها وفاة! ■

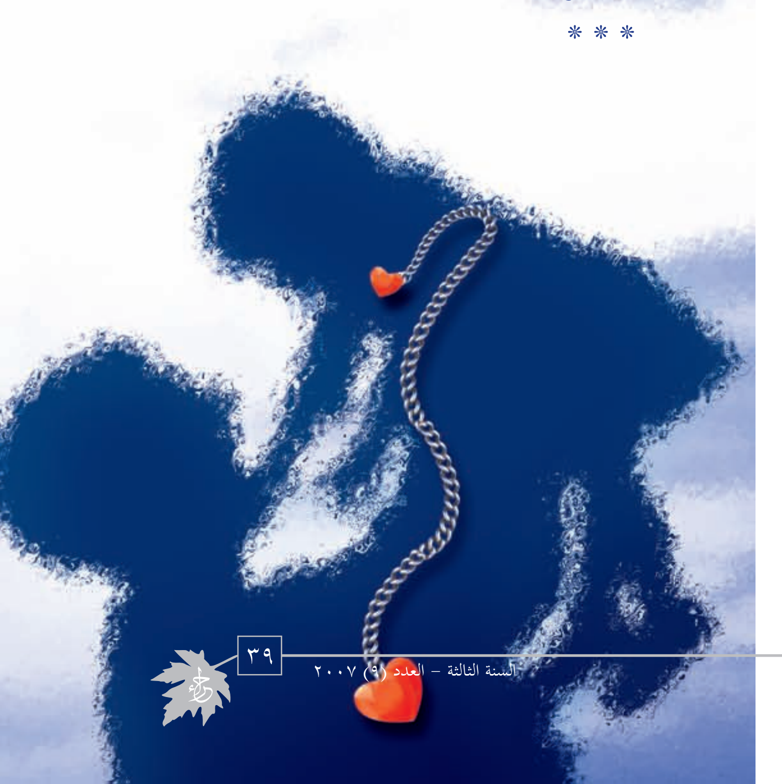
(*) جامعة مولاي إسمعيل، ورئيس المجلس العلمي بـ"مكناس" / المغرب.



هذا المخلوق العجيب

يا إنسان...
يا صنعة الله...
يا مجمع الأسرار...
يا مَصَبَّ الأنوار...
يا مناراً مشعاً...
للتائه والمحتار...
أنت لأخيك الإنسان مرآة...
على مرآة قلبه تنعكس صورتك...
وعلى مرآة قلبك تنعكس صورته...
فبينكما ألف رسالة ورسالة...
وسؤال وجواب... وعتاب واعتذار...
ولكن أنَّى للنائم أن يدرك
ما يقول القلب للقلب...؟

* * *





من كان قلبه بالحق تعالى موصولا كيف يكون حبل ودّه مع الناس مقطوعا...؟ وكيف تغشاه وحدة... أو تنفرد به وحشة...؟

* * *



أنا معدة عبد الله

أ.د. عرفان يلماز*

حبيبي عبد الله!..

عندما كلمك جاري، القلبُ الموجود فوقي، وعرّفك بنفسه سمعت ما قاله لك، وربما ساورك بعض الغضب بسبب حديثه، لكن أعتقد أن كل كلامه لصالحك أنت. فهو من جانبٍ قدّم لك نصائح تَهُمّ صحتك، ومن جانب آخر وجّه نظرك إلى الخالق ﷻ الذي وهب لك القلب ففتح بذلك آفاق تفكيرك. وقد أعجبني كلامه جدًّا، وسررت منه، لذا ساورتني الرغبة -أنا المعدة- للتحدث إليك والتسامر معك. وأعتقد أنك إن أصخت السمع فستستفيد من الناحيتين المادية والمعنوية.

أين مكاني؟

أنا أشغل مكانًا في القسم العلويّ من تجويف البطن وتحت التجويف الصدري. ولكي لا يتولد أي ضرر بيني وبين جارَيّ الموجودَين فوقي، القلب والرئة، فقد وضع خالقنا ستاراً داخل القفص الصدري، أي وضعهما داخل قفص عظميّ. ولكن لا تتصور أنني غير مصانة، فقد صان ربنا كل واحد منا بالشكل المناسب. فلو كان هناك سقف من العظام فوقي لوجدتَ صعوبة في الأكل والشرب. ثم نظرًا لعجزي آنذاك من خزن ما تأكله، كنتَ تضطر آنذاك لتناول وجبات طعام بكمّيات قليلة ولكن بشكل دائم. ولكن نظراً لوجودي في تجويف ذي جدران مرنة جدّاً -مثل التجويف البطني- فإنني أستطيع الاحتفاظ بما تأكله وتشربه حتى إتمام عملية الهضم. وهكذا تستطيع تناول الطعام في وجبات معينة للتفرغ بعدها لمشاغلك الأخرى.

قد يبدو شكلي العام بسيطًا جدًّا في نظرك. لذا ترى بعض من يتكلم عني يقول مهونًا من شأني بأنني عضو يشبه الكيس. وإذا أردت أن تعرف قدري ومقدار أهميتي، فاسأل من أصيب بالقرحة أو بسرطان المعدة. ذلك لأنني إن تعطلتُ أو أصابني الخلل أو المرض ضاقت أمامك الدنيا، فكل شربة ماء أو لقمة طعام ستكون عذابًا لك، فلا تجد طعمًا لحياتك ولا لذة.

دماغ ثانٍ

تتألف جدراني التي تشبه الكيس ظاهريا من أربع طبقات من أنسجة خاصة. تتكون الطبقة الخارجية من نسيج قوي، وتليها طبقات من العضلات العرضية والطولية، تليها طبقة رخوة تحتوي على الغدد، والطبقةُ الأخيرة طبقة داخلية رقيقة من نسيج "ظهاري" (Epithelium). طبعاً لا يجوز أن ننسى شبكة الشرايين الدمَوية التي تغذي جدران هذه الطبقات العضلية، وكذلك شبكة الألياف العصبية التي تنتشر في كل أجزائها.

وشبكة الألياف العصبية هذه التي أمتلكها معقّدة إلى درجةٍ

مذهلة. فأنا أملك شبكة كبيرة من الأعصاب بحيث أكون مطلعة على ما يجري في جميع أنحاء الجسم وكأنني دماغ ثان. فلو أصيبتْ قدمُك بشوكة، أو لو حزنتَ لأمرٍ ما، أو فرحت كثيراً وضحكت تأثّرتُ بكل هذه الأمور. وهذه الشبكة من الأعصاب حساسة جدّاً بحيث يمكن أن تؤثر على حركتي وعلى إفرازات غددي، وقد تعطلها أو تخرّبها.

عمل الشبكة العصبية

بفضل هذه الشبكة العصبية أبدأ بالسيطرة على حركتي وعلى إفرازات غددي بدءً من قيامك بشم رائحة الطعام والتهيّؤ للأكل، وهكذا أُنقذك من أي ضيق بعد تناول الطعام.

كذلك فأنا سهلة القياد، إذ تستطيع -إن أردتَ وعقدتَ العزم- أن تروّضني لطراز جديد من الحياة. فهناك من تعوّد على تناول ثلاث وجَبات من الطعام يوميّاً، وبعضهم على وجبتَين، وآخرون على وجبةٍ واحدة فقط. أمّا نصيحتي لك فهي الاعتياد على وجبتين في اليوم.

ولكي تتجزأ الأغذية التي تتناولها ويتمّ امتصاصها من قِبل أمعائك وتكون جزءً من جسدك لا بد أن تمر بي. لأنه لا تتم تجزئةٌ كيميائيّة كبيرة في الفم: كلّ ما يحصل هو تفتّت الطعام إلى قطع صغيرة بطريقة ميكانيكية وتحوّلها إلى قِوام لين يمكن قبوله من قِبلي. فإن استعجلت في الأكل وبلعت الطعام دون مضغ ودون تليين كافيَين أتْعبتَني جدّاً. كما أن اللُّقَم الآتية إليّ بهذا الشّكل قد تقوم بخدش جدران قناة المريء، وقد تُدميها. والأفضل هو مضْغ كل لقمة ثلاثين مرة. ولكن معظم الناس لا يفعلون هذا مع الأسف، فبعد مضغ لمرتين أو ثلاث يرسلون الطعام لي. وهم لا يُحسون بأنهم شبعوا، لذا يأكلون كثيراً فيُخلّون بتوازني.

وأما إذا أكلتَ ببطء فإني فورَ أخذك حاجتك من الطعام سأقوم بإخبار المركز المختصّ في الدماغ بذلك ليقوم بقطع شهيتك.

وهكذا تكون قد وفّرت عليّ التعب من جهة، وتجنبتَ الإسراف من جهة أخرى. وعندما تأكل بسرعة أكون قد امتلأتُ قبل أن أجد الفرصة لإرسال الجزئيات التي تبعث إشارات الشبع، فلا يبقى عندي مكان لا للماء ولا للهواء.



أنواع الخلايا

هناك ثلاثة أنواع من الخلايا في الغشاء المخاطي الذي يبطنني، أي في الغشاء الذي يكون على تماس مع الأغذية. النوع الأول منها يقوم بإفراز حامض الهيدركلوريد "HCl" القوي جدّاً.

يقوم هذا الحامض الذي يستطيع إذابة حتّى الحجر بتجزئة جميع البروتينات ومنها اللحم، وبقَتل الجراثيم الداخلة مع الأغذية والسوائل. ولو لم يوجد هذا الحامض لَما نشطت غدد إفراز أنزيم مادة البَبْسين "Pepsinogen". وهذا الأنزيم لا يعمل وحده، لذا لا يُفرز عندما لا يوجد طعام في جوفي. وعندما يبدأ الطعام بالدخول إليّ يبدأ بإفراز هذه المادة مع إفراز حامض الهيدوكلوريد معًا.

وقد تتساءل: ألا تتضرّر جُدراني بمثل هذا الحامض القوي وهذا الأنزيم الهاضم للبروتينات؟ الجواب: لا يقع مثل هذا الضرر لأن الخالق الرحيم يغطي -بآلية دقيقة- جدراني بشكل

مؤقت بمـادة واقية. والخلايا التي تفرز السائل المخاطي الواقي تقـوم بعملها هـذا قبل إفراز الحامض وقبل إفراز الأنزيم المفتّت للبروتينات، أي يعمل هذا السـائل المخاطي عمل طبقة الجص أو الإسمنت الـتي تَصون الجدران المبنيـة من الطابوق من التأثيرات الخارجية. ومع هذا فبتأثير الحامض والأنزيم أضحّي كل يوم بـــ(١,٥) مليون خلية. وهذا يعني ضياع طبقتي الداخلية كل ثلاثة أيام. ولكن أحمد الله الذي أعطاني قدرة كبيرة على تجديد خلاياي حيث أســتطيع تجديد طبقتي الداخلية بخلايا جديدة.

متى يحصل العطب

أحيانا يحصل عطب أو خلل في إفراز هذه المادة الواقية مما يؤدي إلى تآكل خلايا الجدران بتأثير الحامض والأنزيم، ويبدأ نضْح الدم من الشرايين الدموية الموجودة في الطبقة الداخلية. وهذا يشير إلى إصابتي بـــ"القرحة"، أي ظهور الجروح وبدء النـزيف في جدراني.

ولا تظهر هذه القرحة عند الأشـخاص غير الحسّاسين، لذا فلا تتأثر المنظومة العصبية عندهم. أما الأشـخاص الحساسـون فنظـرًا لكونهم يتأثرون كثيرًا فإن منظومــة الإفراز تتأثر عندهم بســرعة، لــذا يتعرض هــؤلاء للإصابــة بالقرحة بســهولة.

لــذا فإن مــن الأصـوب العيـش باعتـدال وتعقل دون الانحـراف إلى القلـق والخوف والحـزن الشـديد أو الفرح الشـديد، أي مواجهة الأحـداث بصبر. فـإن راعيتَ العيش بتـوازن فلـن تتسـبب في تخريـب نظـام الإفـراز عندي.

أنت لا تستطيع تحريك العضلات التي تشكل نسبة كبيرة من سمك جدراني مثلما تحرك مثلا عضلات يديك أو رجليك. تعمل هذه العضلات اللاّإرادية في هذه المنظومة العصبية دون أن تشعر أنت بها، فهي تتلقى أوامرها وتعمل دون إرادة أو شعور منك.

ومن أهـم خواص هذه العضلات أنها تعمل ببطء، ولكنها لا تتعب بسـرعة. ونظرًا لأنها قابلة للتمدد بسـهولة، فإنك إن لم تكـن متوازنا في الأكل تمددتْ وبرزت إلى الخارج مثلما تبرز شُرفة البناية.

إن نفسـك المائلة إلى الإسراف والجشع تضرّني كثيرًا، وتجعلني أداة ضارة لك. إذن فعليك ألاّ تسـتجيب لألاعيب النفس، وتكون متوازنًا في طعامك وشـرابك، وإلا حوّلتَـني إلى مخزن نُفايـات وجلبتَ الضرر والبلاء على نفسك.

الأمور التي أكرهها

أودّ أن أعلمك ببعض الأمور التي أكرهها، وعلى رأسها المأكولات والمشروبات الحارة جدّاً والباردة جداً. فكلٌّ منهما يخرّب عمل أنزيماتي ويعرقل عملها.

وأفضل درجة حرارة تعمـل فيها هذه الأنزيمات هي درجة الحرارة القريبة من حرارة الجسـم، أي بدرجة حرارة ٣٦-٣٧ مئوية.

إن هناك الآن شبهات قوية من أن الأطعمة الحارة جدّاً تسبب في إصابة خلاياي بالسرطان. أما الأشياء الباردة جدّاً فإن تلُكْها أو تُبقِهـا فترة في فمك لتدفئتها قليلا ثم تبلعها تكون قد حفظتني من الإصابة بالـبرد، لأنني إن أصبتُ بالـبرد تقلصتْ عضلاتي وفقدتُ توازني فلا أستطيع أداء مهمتي.

أقوم بمخْض وتحريك الأطعمة التي تأتيني من البلعوم وأعالجها بالأنزيمات حتى تتحول إلى حالة سائلة، ثم أدفعها -بعد أن تتحول إلى القوام المطلوب- تدريجيًّا نحو الأمعاء الموجودة تحتي والمسماة بـــ"الإثنَي عشر".

فأنا أشـبه الدنيا التي توصف بأنهـا دار ذات بابَين، لأنني لا أحتفظ بشيء في جَوفي، بل آخذ الأغذية من جهة، ثم أرسلها من جهـة أخرى. لم يوضع بيني وبين قناة الطعام (البلعوم) أيّ باب،

لذا أستطيع إن لزم الأمر أن أُرجع بعضَ ما يدخل إلى جوفي إلى الخارج بعملية التقيؤ.

وقد يبدو التقيّؤ في الوهلة الأولى شيئًا غير مستحسن، لذا فقد تتساءل: لماذا لم يوضع باب أو حاجز هنا؟ ولو كان ما تقوله صحيحًا فأنا أسألك: ماذا ستكون حالك إن تناولت عن طريق الخطأ سُمًّا أو غذاءً فاسدًا أو متعفنًا؟ كان من الضروري آنذاك إما تنظيف معدتك أو إجراء عملية لك حياتك. وقد تموت قبل إجراء تلك العملية. بينما أستطيع بقابلية التقيؤ هذه إخراج ما أشعر بضرره، ويمكن كذلك مدّ خرطوم إلى جوفي لتنظيفه.

فهل فهمت الآن لماذا لم يوضع باب أو حاجز بيني وبين القسم العلوي فيّ؟ وعلى العكس من هذا فقد وضع باب بيني وبين الأمعاء لكي لا ترجع الأطعمة الموجودة في الأمعاء إليّ مرة أخرى، ولكي لا يختلّ الجوّ الحامضيّ الموجود عندي. لأن الأنزيمات التي تعمل في الأمعاء ذات طبيعة قاعدية أو حيادية وتعمل في وسط قاعدي. والجو الحامضي الموجود عندي يخرب عمل أنزيمات الأمعاء ويخل به. فلو تدفقت إليّ أملاح كيس الصفراء المفرزة من الكبد أو أنزيمات البنكرياس، لاختلت الأمور عندي تمامًا، وقد تم تهيئة جو مناسب في الأمعاء لظروف عمل تلك الأنزيمات والإفرازات.

اسمعْ نصيحتي

عندي لك توصية أخرى يا عبد الله!.. إياك أن تمارس الرياضة وجوفي مملوء. ذلك لأن طبقة العضلات السميكة لجدراني تحتاج إلى كمية كبيرة من الدم، لذا يتم سحب مقدار كبير من الدماء من الأجزاء الأخرى من الجسم ويُرسل إليّ. فإن مارست الرياضة في هذا الوقت فلن تتم تغذية الأجزاء الأخرى من جسمك بالدم بشكل كافٍ، وهكذا سيتعب قلبك.

سأفشي لك سرّاً آخر: أنت تقترف خطأ كبيرًا كلما تَزيد من إرسال الطعام إليّ دون مبالاة بأي شيء ودون الاهتمام بالحلال والحرام؛ لأن صحتك الجسدية وصحة حياتك الروحية تتناسب عكسيًّا مع حجمي. فإن زدتَ من حجمي زاد حجم الدهون المتراكمة في قلبك وفي شرايينك، وتَعرقَل عملُه وعملها. ويقول العديد من أهل العرفان بأن الأكل الكثير يؤدي إلى صدأ الأحاسيس الروحية وضعفها. والحقيقة أن الإنسان يكفيه ما يقيم به صُلبه. لذا فإن لم تصبح أسيرًا للذة الأكل، وتذكّرت صاحب النعم والأفضال ﷻ، وبقيت في دائرة الحلال، وأكلتَ ما يكفيك مع أداء الشكر... كنتُ أنا مرتاحة هنا وأنت مرتاحًا في الدار الآخرة. بالنسبة لي لا فرق بين قطعة حلوى تجتاز فمك إليّ وقطعة خبز، لذا فكن مراقبًا لما يدخل في فمك لكي تتجنب الإسراف وتراكم الشحم والسمنة.

المعدة بيت الداء

قد يضحك بعضهم من هذه النصائح الأخيرة ويقولون: "اللّذة الأكل من نعيم الحياة.. كما يجب أن نتغذى جيداً"، لذا فلا يهتمّون ولا يلتفتون إليها. ولكن الطبّ الحديث والمختصّين بعلم الأغذية وصلوا ومنذ سنوات عديدة إلى النتيجة نفسها التي ذكرتُها لك، حيث يقولون الآن: "أجل!.. أنتِ محقّة!.. حَسْبُ ابن آدم لُقَيمات يقمن صُلبه".

إن ملء المعدة سبب مهم للعديد من الأمراض. إذن فإن كان الأكل طريقاً للذة فهو طريق إلى الأمراض أيضًا.. إذن فالمهم والضروري هو التوازن في التغذية. فهذا هو ما يوصي به العلم الحديث.

وبفضل التغيير الذي تقوم به في السَّنَة شهرًا واحداً (رمضان المبارك) في نظام الأكل فأنا وجميعُ مساعديّ نقوم بتجديد أنفسنا، وكأننا دخلنا في مخيّم أو في دورة تدريب. وهذه حاجة ضرورية لنا لندخل موسماً جديداً بعد نيل الراحة اللازمة لنا. وقريبًا سيحلّ موعد المخيم من جديد، لذا فأنا أنتظر حلول هذا الموعد لآخذ قسطا من الراحة.

عزيزي عبد الله!

أنت في حاجة إليّ للحصول على الغذاء وعلى الطاقة اللازمة، لأنني إن لم أكن موجودة لا يعمل حتى قلبُك، كما يجب أخذ الغذاء الكافي لتأمين الطاقة لكل عملية بيولوجية. فأنا سَيف ذو حدَّين. يجب ألا تملني كثيراً، وألا تدلّلني أيضاً كثيراً. وأنا أنتظر منك مثل هذا التصرف المتوازن. ■

(*) جامعة ٩ أيلول / تركيا. الترجمة عن التركية: أورخان محمد علي.

أعراض الوحي المنزل على ذات النبي المبجل



د. رابح المغراوي*

ظل محمد ﷺ يواظب على ما اعتاده من لذة خلوته، ومناجاة ربه في غار حراء، شهرا من كل سنة، إلى أن أشرق عليه اليوم الذي تحقق فيه الاصطفاء، وتأكد فيه الاجتباء، ليكون آخر لبنة في صرح العناية الربانية، وآخر جوهرة في نظم الرعاية الرحمانية، استجابة لسنة التعهد المرعية، تفقدا للبشر بالتوجيه والترشيد والهداية، مباشرة ليظلوا على صلة بخالقهم وبارئهم ورازقهم، قال عليه الصلاة والسلام: "مَثَلي ومثل الأنبياء مِنْ قبلي كَمَثَلِ رَجُلٍ ابْتَنَى بُيُوتاً فأَحْسَنَها وأَكْمَلَها وَأجْمَلَها إلاّ مَوْضِعَ لَبِنَة في زَاوِيَة من زَواياها، فَجَعَلَ النّاسُ يَطُوفُونَ ويَعجَبونَ من البُنيان بالبيت فَيقولونَ: ألا وَضَعتَ ها هنا لَبِنَةً فيتمّ بُنيانُك؟"قال النبيُّ ﷺ:" فكنتُ أنا اللَّبنَةَ"[١]

في مغارة من مغارات جبل حراء الذي سيصطلح على تسميته بـ"غار حراء" تحقق الاصطفاء بالمخاطبة عن طريق ما اصطلح على تسميته بـ"الوحي"، فما هي الحمولة الدلالية لهذا اللفظ الغريب على بيئته، الجديد على معجمه؟

وهل كان الوحي يأتي على صورة واحدة، أم كان على صور متعددة؟

وإذا كانت له صور متعددة، فما حقيقة تلك الصور؟

وهل كان الوحي مجرد تفهيم وتعليم في سرعة وخفاء كما يدل على ذلك معناه اللغوي، ليس له أعراض أو آثار يراها المشاهد؟

أم كانت له أعراض غاية في الوضوح والبيان حفظها تاريخ الرسالة الإسلامية الخالدة، وتراث النبوة المحمدية الباقية؟

ذلك ما سأحاول رصده من خلال هذه المقالة الوجيزة، فأقول:

الوحي لغة هو "الإشارة والكتابة والرسالة والإلهام والكلام الخفي وكل ما ألقيته إلى غيرك"[٢]، ومن معانيه أيضا الإعلام في خفاء، ومنه الوَحَى ومعناه العجلة والسرعة.[٣]

ويمكن اختصار معاني الألفاظ التي ذكرت في القول بأن الوحي هو الإعلام الخفي والسريع.

أما اصطلاحا فهو ما يوحيه الله تعالى إلى أنبيائه ورسله من كلام أو معنى أو غير ذلك مما يعلمونه في خفاء وسرعة.

والوحي هو الركن الأساس الذي تستند عليه النبوة بحيث ينعدم مدلولها بدونه، وهو المصدر الوحيد لكافة الأخبار الغيبية، والمبادئ العقدية، والأحكام التشريعية، وهو الذي يميز بين الإنسان الذي يعتمد فكره ورأيه، وبين الإنسان الذي يصدر عن ربه بأمانة.[٤]

والوحـــي هو آية النبوة الكـــبرى، ومظنة التصديق بها، وهو عماد اليقين الذي لا ينبغي أن يتطرق إليه الشـــك، إلا انهار كل ما ترتب عليه مما ذكر.

كما أن الموقف من الوحي تصديقا أو تكذيبا هو الفرقان بين الإيمان والكفر، والفيصل بين الإسلام والشرك.

وهو أيضا سنة من سنن الله مع أنبيائه، قال تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُوراً وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلاً لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيماً﴾(النساء: ١٦٣-١٦٤).

ولذلك يتعين على الباحث عن الحق في أمر الوحي أن يستقصي حقيقته، ويتأمل صوره، ويستكشف آثاره، من خلال النظر فيما حفظ في هذا الشـــأن من نصوص غاية في الدقة، وآية في الحجة، تبعث على التعجب والذهول، زيادة في البيان، وإمعانا في ترسيخ اليقين في الوجدان، مظنة الإيمان المكين، وأساس الاعتقاد المتين، الذي يبعث على الثقة والتصديق ويرقى بصاحبه إلى مقام الإحسان.

فكيف كانت آثار هذه التجربـــة الفريدة على النبي الكريم، والخبرة اليتيمة على محمد عليه الصلاة والســـلام؟ وما هي كافة مظاهر هذا الأمر على جسمه الشريف عليه الصلاة السلام؟

لقد كان حقا لعملية اســـتقبال الوحي آثـــار مادية ظاهرة، وأعراض فســـيولوجية بادية للمشاهدة والمعاينة يدركها كل من حضر، وهو ينظر إلى النبي الكريم وهو يكابد استيعاب التنـــزيل، ويعاني استقبال الترتيل، نذكر منها الأعراض الآتية:

١-تصبب العرق

قالت عائشـــة رضي الله عنها: "ولقد رأيتهُ ينـــزل عليه في اليوم الشديد البرد، فيُفْصَمُ عنه وإنَّ جبينَهُ لَيَتَفَصَّدُ عَرَقاً".(٥) وهذا يدل على المعاناة الشديدة الناجمة عن ضخامة الجهد الذي كان محمد ﷺ يبذله أثناء هذه العملية.

٢-تبدل لون الوجه

من الأعراض التي كانت تعتري جســـمه الشريف عليه الصلاة والســـلام، تغير لون بشـــرته، وقد جاء في ذلك نصوص متعددة دلت على الحقائق الآتية:

أ-احمرار الوجه

وقـــد جاء هذا الحديث الصحيح الـــذي روي عن يعلى بن أمية حيث ورد فيه: "... فإذا النبي ﷺ محمر الوجه...".(٦)

وأعتقد -والله أعلم- أنـــه ربما قد لا يكون هناك تلازم بين عرض احمرار الوجه وعرض تصبب العرق، إذ قد يحمر الجســـم دون أن تكون هناك إفرازات عرقية، كأن يتصبب الجســـم عرقا دون أن ترتفع درجة حرارته.

بـــ-الرُّبْدَةُ

وقد دل على ذلك الحديث الذي أخرجه مســـلم عن عبادة بن الصامت: "أن النبي ﷺ كان إذا نزل عليه الوحي كرب له وتربَّد وجهه".(٧)

والرُّبدة في اللغة هي الغُبرة، ومن معانيها السواد المختلط، أو الحمرة التي خالطها ســـواد، وتربّد وجهه: أي تغير من الغضب، وقيل صار كلـــون الرماد، وتَرَبَّدَ الرجـــل: إذا تَعَبَّسَ، وتَرَبَّدَت السماء: تَغَيَّمَت.(٨)

وحُقَّ لرســـول الله ﷺ أن يعتريه الكرب العظيم لهيبة المقام، وهَـــول التجربة، وجســـامة التبعة، يتفاوت الكـــرب بتفاوت الواجبات والمعاني والمقامات والأحوال التي تتحدث عنها الآيات والسور، أكّد هذا ما روي عن زيد بن ثابت رضي الله عنه، قال: "كان إذا نزلت على رســـول الله ﷺ السورة الشديدة أخذه من الشدة والكرب على قدر شدة السورة، وإذا نزلت عليه السورة اللينة أصابه من ذلك على قدر لينها".(٩)

وزيد بن ثابت رضي الله عنـــه يتحدث عن موضوع خبرتُه به عظيمة، لاضطلاعه بأمانة تدوين وحي الســـماء بأمرٍ من الله سبحانه وتعالى ورسوله ﷺ.

٣-تتابع الأنفاس وترددها

وهذا مما قد يدل على أن عملية التلقين والإلقاء في الرُّوع لم تكن عملية ذهنية صرفة، وأن العملية، مهما كان محلُّ الأمرِ المُلَقَّنِ الذهنَ والدماغَ والقلبَ بصفة عامة كما تقرره اللغة، فإن لها تأثيرا على أجهزة كثيرة من جسم النبي الكريم عليه السلام، إن لم نقل الجسم برمته، وبخاصة جهاز التنفس الذي له علاقة بإمداد الهواء، ودقات القلب، التي هي أظهـــر الأمور وأبينها في المواقف التي لا تطاق.

هذا طبعا إذا لم يكن مراد الله عز وجل إظهار الأعراض إمعانا في الإتيان بالحجة البالغة لإقامة الدليل.

٤-الغطيط

روى الإمـــام البخاري عن يعلى بن أمية، أنه كان يقول لعمر بن الخطـــاب رضي الله عنه: ليتني أرى نبي الله يوحى إليه، فلما كان بالجِعْرانة[١٠]، وعلى رســـول الله ثوب قد أظل به، ومعه ناس من أصحابه منهم عمـــر، إذ جاءه رجل عليه جبة متضمّخة بطيب، فقال: يا رســـول الله كيف ترى في رجـــل أحرم بعمرة في جبة بعدما تضمَّخ بطيب؟

فنظر النبي ﷺ ساعة، ثم سكت فجاءه الوحي فأشار عمر إلى يعلى: تعال، فجاءه يعلى فأدخل رأسه، فإذا النبي ﷺ محمرّ الوجه يغط كذلك، فمكث كذلك ســـاعة، ثم سري عنه، فقال:" أين الذي سألني عن العمرة آنفا؟"...إلى آخر الحديث.[١١]

والغطيط: صوت تنفس غير عاديّ يحدثه النائم عندما يكون على هيئة غير مريحة، ينبعث من الحنجرة والخيشوم، أو عندما يلم به كابوس مزعج.

٥-انبعاث الأزيز ناحية رأسه

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قال: " كان رســـول الله ﷺ إذا أنزل عليه الوحي يُسْـــمَعُ عند وجهـــه كَدَوِيِّ النحل، فأُنزل عليه، فمكثنا ساعة، ثم ســـري عنه، فقرأ:﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنونَ﴾(المؤمنون:١)" إلى آخر الحديث.[١٢]

وهـــذا الصوت كما يفهم من الحديـــث لا علاقة له بعملية التنفس التي مركزها الصدر والفم والأنف التي هي عَرَضٌ بذاتها، وإنما له علاقة بالدماغ ولا شـــك، وربما كان الصوت منبعثا من الرأس، أو لربما كان منبعثا من الأذن أو منهما جميعا.

٦-ثقل الوزن

وقد جاء في ذلك أحاديث طريفة منها ما ورد في صحيح البخاري عـــن زيد بن ثابت رضي الله عنه، قال: "أنزل الله على رســـوله وفخذه على فخذي، فثقلت عليّ حتى خفت أن ترض فخذي".

وروي عن أبي أروى الدّوســـي: "رأيت الوحي ينـــزل على رسول الله ﷺ، وإنه على راحلته فترغو وتفتل يديها حتى أظن أن ذراعها ينفصم، فربما بركت وربما قامت مؤبدة يديها حتى يسرى عنه، من ثقل الوحي وإنه لينحدر منه مثل الجمان".[١٣]

وعـــن أسماء بنت يزيد قالت: "إني لآخذة بزمام العضباء ناقة رســـول الله ﷺ، إذ نزلت عليه المائدة كلها، وكادت من ثقلها تدق عضد الناقة".[١٤]

ولقد شـــاهد الصحابة رسول الله ﷺ كيف أن ناقته التي تقله وهو يكابد الوحي لا تقوى على حمله فتخر على الأرض راغمة، عن عائشة رضي الله عنها، قالت: "إن كان ليوحى إليه وهو على ناقته فتضرب بجرانها من ثقل ما يوحى إليه".

وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً﴾(المزمل:٥)، وقوله: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِـــعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْـــيَةِ اللهِ﴾(الحشـــر:٢١) فالثقل هنا إذا ليس معنويا فحسب وإنما هو أيضا ماديا حسيا، بما أوحت به كافة النصوص الدالة على ذلك.

هكـــذا كانت أعراض الوحي كما قررها الآثار المختلفة التي دلت بجلاء على شدة التجربة ومضائها على كيان محمد النبي عليه الصلاة والسلام بكليته.

إنها خبرة لم تكن ســـهلة عليه كمـــا قد يتبادر إلى أذهان من لم يطلعوا على حالها كمـــا وُصِفت، وصورتها كما جليت، أما حقيقتهـــا في جليتها فلا يعرف كنهها إلا الله ســـبحانه وتعالى ورسوله عليه الصلاة والسلام. ■

(*) أستاذ بجامعة محمد الأول، وجدة / المغرب.

الهوامش

[١] البخاري، المناقب، ١٨؛ مسلم، الفضائل،٧؛ السنن الكبرى، للبيهقي، ٥/٩، دلائل النبوة، للبيهقي، ٣٦٥/١- ٣٦٦؛ المسند، للإمام أحمد، ٣٦١/٣.

[٢] لسان العرب، لابن منظور، ٤٧٨٧/٦.

[٣] انظر: لسان العرب، لابن منظور، ٤٧٨٨/٦.

[٤] كبرى اليقينيات الكونية، لمحمد سعيد رمضان البوطي، ص: ١٥٤.

[٥] البخاري، بدء الوحي، ٢؛ مسلم، الفضائل، باب عرق النبي ﷺ في البرد وحين يأتيـــه الوحي؛ الموطأ، للإمام مالك، كتاب القرآن، باب: ما جاء في القرآن، ٢٠٢/١. دلائل النبوة، للبيهقي، ٥٢/٢.

[٦] البخاري في صحيحه، ١٦٧/٢. ومســـلم في صحيحـــه، كتاب الحج، ٨.

[٧] كتاب الفضائل، باب عرق النبي ﷺ في البرد وحين يأتيه الوحي، حديث ٨٨.

[٨] لسان العرب، لابن منظور، ١٥٥٥/٣.

[٩] الوفا بأحوال المصطفى، لعبد الرحمن بن الجوزي، ص: ١٦٦.

[١٠] اســـم موضع مابين الطائف ومكة وهو إلى مكة أقرب. الروض المعطار، ص: ١٧٦-١٧٧.

[١١] أخرجه البخاري في صحيحه، ٢/ ١٦٧. ومسلم في صحيحه، كتاب الحج، ٨.

[١٢] المستدرك، للحاكم النيســـابوري، ١/ ٥٣٥؛ المسند، للإمام أحمد، ٣٤/١؛ الترمذي١٥١/٤؛ الدلائل، للبيهقي، ٥٥/٧.

[١٣] الوفا بأحوال المصطفى، ص: ١٦٨.

[١٤] الوفا بأحوال المصطفى، ص: ١٦٨.

الفروق الجنسية في العملية التربوية



شمس الدين بولات*

عندما نتحدث عن زيادة كفاءة الأفراد في تركيا وفي العالم، فإن أول ما يتبادر إلى الذهن طبعاً هو المؤسسات التربوية. وعندما يكون الإنسان هو الموضوع نتذكر المثل القديم: "العلم في الصغر كالنقش في الحجر". هذا المثل محق وهو يشير إلى أهمية التعليم والتربية وكيفية تشكل خلفية خزين المعلومات، وشكل التربية لدى الإنسان وأنها تستمر مثلما تشكلت، وأن إحداث أي تغيير فيما بعد يحتاج إلى انقلاب ذهني كبير. لذا فسنقوم هنا بنقد ذاتي لعملية التربية والتعليم الموجودة حالياً في المؤسسات التي تعد قاعدة التعليم، وهي المدارس الابتدائية والمتوسطة والثانوية، وأحياناً مدارس الحضانة أيضاً. كما سنقدم بعض الاقتراحات التي نعتقد أنها تفيد في رفع الكفاءة في هذه المؤسسات التعليمية.

الهوية الجنسية

اكتشف العالم النفسي "هربرت لاندسال" في مركز أبحاث "Bethesda" بأن النساء والرجال الذين أصيبت عندهم الأقسام الدماغية نفسها بالخلل يتأثرون بشكل مختلف. فقد اختار لدراسته مجموعة مصابة بالصرع وقد نُزع القسم الأيمن من دماغهم وهو القسم الذي يحدد الإحساس بالحيز أو الفضاء الموجود حول الإنسان ويعين شكل الأشياء المحيطة به. فشاهد أن النساء



اللائي نُزع القسم الأيمن من دماغهن لم يفقدن الشيء الكثير من قابلياتهن. بينما شاهد أن الرجال الذين نُزع هذا القسم من دماغهم قد فقدوا قابلياتهم المتعلقة بالإحساس بالمكان والفضاء في تجارب (IQ)[1] التي أجراها عليهم.

وقام "لاندسال" أيضاً بتجارب حول القسم الأيسر من الدماغ الذي يسيطر على قابلية اللغة. فشاهد أيضاً أن الرجال الذين تضرر هذا القسم من دماغهم فقدوا قابلية الكلام، أما النساء اللائي تضرر هذا القسم من دماغهن فلم يفقدن معظم هذه القابلية، مع أن قابلية الرجال في الكلام واللغة أكثر من قابلية النساء بثلاثة أضعاف.

الفروق الدماغية بين الأنثى والذكر

وأدى هذا بـ"لاندسال" إلى استنتاج ما يأتي: "إن النساء يملكن قابلية الإحساس بالمكان وقابلية الكلام في كلا القسمين من الدماغ". وهذه النتيجة أصبحت مقبولة بشكل عام. ومع أن هاتين القابليتين أي قابلية الإحساس بالمكان وقابلية الكلام موجودة بشكل أقوى في الرجال إلا أن قابلية الإحساس بالمكان وبالفضاء موجودة عندهم في القسم الأيمن من الدماغ، وقابلية الكلام واللغة موجودة في القسم الأيسر منه. وقد أيدت التجارب العديدة الأخرى التي جرت في هذا الخصوص هذا الاستنتاج. وتوصلت العالمة الكَنَدية "ساندرا وتلسون" إلى أن الفروق الدماغية في الرجل تيسر له القيام بفعاليتين في الوقت نفسه. فمثلا يستطيع الرجل القيام بنشاطين مثل القيام بقراءة خارطة والتحدث في اللحظة نفسها بشكل أيسر من المرأة. وهي تقول بأن السيطرة على فعاليتين أو نشاطين في الوقت نفسه يتم في الرجل في فصين مختلفين من فصي الدماغ. أما في المرأة ففي الفصين معاً، لذا يصعب عليها التحدث وقراءة خريطة في اللحظة نفسها. لذا فالأبحاث التي تناولت تشريح الدماغ دلت على أن الفروق بين دماغ الرجل ودماغ المرأة تجعل الرجل أفضل من النساء في النشاطات المتعلقة بالفضاء والمكان، لأن هذا النشاط في المرأة يتم عن طريق فصي الدماغ معاً.

إذن فهذه الأبحاث تؤكد على وجود فروق في الدماغ بين الرجل والمرأة، وأن لكل منهما بنية مختلفة عن الأخرى. وهذا يؤدي إلى فروق في التخصص بينهما، كما يدل أيضا على أن دماغ الرجل قد تخصص أكثر من دماغ المرأة.

هنا يخطر على البال هذا السؤال: هل يبدي كلا الجنسين ردود الفعل نفسها أمام الأشياء نفسها ما دام لكل منهما بنية دماغية مختلفة عن الآخر أم ردود فعل مختلفة؟ هذا هو ما يهمنا هنا. وقد دلت المشاهدات والأبحاث العلمية على أن الرجل يستخدم فص دماغه الأيسر في حل المعضلات التجريدية، بينما تستخدم المرأة فصي الدماغ في هذا الأمر. وتم قياس التيار الكهربائي الذي ينشره

أحببتم، ومن مقالع محبتكم تنشئون، تتعبون ولكنكم تبتسمون، وتعرقون ولكن عزاءكم أنكم تبنون، وعالمَ المحبة والنور تشيدون، السماء تحييكم، ونجومها إليكم ترنو، وجباهكم تقبِّل.

***

الدماغ عند الأولاد وعند البنات لدى قيامهما بإسقاط شكل ثلاثي الأبعاد على الورق، فلوحظ أن الفص الأيمن عند الأولاد يعمل بنجاح أكبر. أما في البنات فهذا العمل يستوجب منهن عمل فصي الدماغ. كما لوحظ في التجارب التي أجريت على الأولاد والبنات بعرض مشكلة أمام العين اليسرى (للوصول إلى الفص الأيمن مباشرة)[٢] أن الأولاد كانوا أكثر نجاحاً في حل المشكلة.

لقد نوقشت نتائج هذه التجارب وهذه المعلومات من قبل مئات الباحثين وتم التوصل إلى النتائج الآتية:

- الفروق الموجودة في بنية الدماغ تؤدي إلى فروق في السلوك وفي القابليات بين الجنسين.
- البنات أسرع من الأولاد في تعلم القراءة.
- البنات أكثر نجاحاً في الامتحانات الشفوية من الأولاد.
- الرجل أكثر نجاحاً في القابليات المتعلقة بـ"الفضاء والمكان"
- تستعمل البنات الطرق الشفوية أكثر في حل المسائل الرياضية التجريدية.
- تبدأ الطفلة بالكلام أسرع من الطفل، ويكون خزينها من الكلمات أكثر.
- يملك الرجال قابلية في الأمور المشخصة أو الملموسة.
- البنات في مرحلة الدراسة الابتدائية أكثر نجاحاً من الأولاد في تعلم القراءة، لذا يُتهم الأولاد بأنهم أغبياء. ويترسخ هذا في لاشعورهم مما يكون له أسوأ الأثر في المراحل المقبلة من التعليم.
- تؤسس الطالبات علاقات أفضل مع المدرسين والمدرسات، ويشاركن في الدرس بصورة أكثر إيجابية من الطلاب.
- يبدي الطلاب نجاحاً أكثر من الطالبات في الرياضيات والمواضيع المشخصة (أي غير التجريدية) والنظرية الأخرى.

آليات التعليم والفروق الدماغية

فاستناداً إلى هذه المعطيات يجب التوجه إلى شكل جديد من التعليم قائم على أساس هذه الفروق بين الجنسين. فكما تُعطى مناهج مختلفة من التعليم لمجموعتين مختلفتين من ناحية الاختصاص (مثلا دروس الفيزياء التي يدرسها المهندسون مختلفة عن دروس الفيزياء لمدرسي الفيزياء) كذلك يجب مراعاة هذه الفروق في القابليات للوصول إلى أفضل النتائج.

ثم لننظر إلى هذه المسألة من زاوية المعلمين والمدرسين والأساتذة. فهل على هؤلاء القيام بتعليم مفردات المناهج التعليمية بشكل مختلف للطالبات عن الطلاب؟ أم أن هناك طريقاً وسطاً بين هذه الثنائية؟

هذه الفروق بين المرأة والرجل ليست فروقاً سطحية كما يتوهم البعض. ولا شك أنهما متساويان في الحقوق والواجبات في المجتمع، ولكن إن قمنا بتدقيق القابليات نرى فروقاً كبيرة بين قابلياتهما.

تقول "آنا موير" موضحة هذه المسألة: "تتزل هذه الفروق إلى أعماق كبيرة، وهي تبدو في الدماغ وفي بنيته وفي أولويات كلا الجنسين واستراتيجياتهما. وهي توجه آمالنا وأهدافنا وقابلياتنا ومهاراتنا. أما حصر هذه الفروق في ساحة التناسل فليس خاطئاً من الناحية العلمية فقط، بل هو إهمال لإنسانيتنا كذكر أو كأنثى".

وحول فكرة المساواة بين الجنسين تقول "أليس روسي": "التنوع ظاهرة بيولوجية، أما المساواة ففكرة ومفهوم أخلاقي وسياسي واجتماعي". وهي بذلك تبدي شكوكها حول مدى تلاؤم مفهوم المساواة مع العلم.

في مرحلة الحضانة والتعليم الابتدائي لا يكون الطلاب موفقين تماما. ولكن ما إن يبلغ الطالب مرحلة المراهقة حتى يبدي تقدما كبيراً حيث يستطيع اللحاق بالطالبات في موضوع القراءة والكتابة

والحديث، ثم يتجاوزهن في ســاحة الرياضيات؛ حيث نرى أن درجات (IQ) التي يحصل عليها الطالب البالغ ســن الرابعة عشرة والسادسة عشرة ترتفع بشكل ملحوظ، بينما تراوح درجات (IQ) التي تحصل عليها البنات في هذا السن في مكانها، بل ربما تهبط أيضاً.

ومع أن البنات يتعلمن العد والحســاب بصورة أســرع من الأولاد، (في الحقيقة هن يتعلمن كل شــيء في البداية أســرع مــن الأولاد)، إلا أن الأولاد لا يلبثــون أن يتفوقــوا عليهن في المنطــق الرياضــي. وتتناقص قابليــة البنات بمــرور الوقت في الرياضيــات كلما اتجهــن من العمليــات الحســابية الأربعة –كالطرح والجمع– إلى المســتويات النظريــة؛ أي إن الفروق في القابليات بين الجنســين موجودة في جميــع المراحل العمرية.

قامت جامعة جون هوبكنس في الولايات المتحدة الأمريكية عــام ١٩٧٢ ببحث حول قابليات الأطفــال الأذكياء في مدينة "بوســطن". وقد شمل هذا البحث آلافاً مــن الأطفال من كلا الجنسين بعمر ١١–١٢ سنة. وكان البحث يدور حول القابليات الرياضية لهؤلاء الأطفال المتفوقين من ناحية حاصل الذكاء (IQ) والذين كانوا يشكلون ٣٪ ضمن المتفوقين في موضوع الرياضيات والامتحانات الشــفوية، فظهر أن الأولاد أكثر قابلية من البنات في موضوع الرياضيات. وكلما زادت صعوبة الامتحانات زادت نسبة نجاح الأولاد بالنسبة للبنات.

ففــي التجارب التي أجريت وشــارك فيها المئات من الطلبة من كلا الجنســين لوحظ أن نسبة نجاح الطلاب إلى الطالبات في مستوى +٤٢٠ هو ١,٥÷١ وفي مستوى +٥٠٠ (أي في تجارب وامتحانات أصعب).

كانت النســبة ١÷٢، وفي مستوى +٦٠٠ أصبحت النسبة ١÷٤ وفي مستوى +٧٠٠ (وهو أعلى مستوى) وصلت النسبة إلى ١÷ ١٣ كما لوحظ أن الفروق المتعلقة بالجنس تتوضح أكثر كلما تقدم العمر. فهرمون الرجولة يقوي قابلية الرجل المســتندة إلى النظر والمتعلقة بالفضاء–المكان، بينما يُضعف هرمون الأنوثة هذه القابلية. لــذا تتوضح فروق القابلية في علم الرياضيات عند الرجل بعد بلوغه ونضجه.

تناول الباحثون النظريــة القائلة بأن الطلاب أكثر نجاحاً في المنطق الرياضي بينما الطالبات أكثــر نجاحاً في عمليات الجمع والطــرح... تناولوا هــذه النظرية بالفحــص والنقاش فأعطوا مفــردات في علم الرياضيات إلى الطــلاب تختلف عن المفردات المعطاة للطالبات. ولكن الفروق في القابلية في علم الرياضيات لم تظهر إلا بعد إعطاء المفردات نفسها لكلا الجنسين.

ولتفســير هذا الأمر ذكــروا ما يأتي: "إن معظم مدرســي الرياضيات هم من الرجال، لذا فإن لغة علم الرياضيات ولسانها لغة ذكورية ولا تناسب الطالبات".

الانقلابية في فلسفة التعليم

لذا نســتطيع القول بوضوح بأن على نظــام التعليم عندنا قبول وجود هذه الفروق بين الجنســين وأخذها بنظر الاعتبار وتحديد نظام التعليم حسبها. فإن كنا نرغب في تشويق الطالبات وحثهن للدخول إلى كلية الهندســة، علينا أن نجعل درس الرياضيات في المدارس أسهل بالنسبة للطالبات، وهذا يحتاج إلى تعليم الطالبات هذا الدرس بشكل مناسب لعقولهن.

هناك أدلــة تبرهن على إمكانية التغلــب على العقبات التي يصادفها الطلاب الصغار في مراحل التدريس الأولية، فهم يلاقون في البداية صعوبة في التعلم لأن المناهج الدراسية موضوعة حسب عقول وقابليات الطالبات، ولكن إصرار عوائل الطلاب على قيام أبنائهن بالتعلم يدفع هؤلاء الطلاب إلى اجتياز هذه العقبة وتعلم القراءة والكتابة بسلاســة. ولكن الطالبات لا يســتطعن اجتياز عقبة تعلم العلاقات المكانية–الفضائية بسهولة، أي بينما يستطيع الطلاب اجتياز الصعوبات التي يلاقونها في المراحل الأولى من التعلم لا تستطيع الطالبات تطوير قابلياتهن فيما يتعلق بالمكان–الفضاء.

والنتيجة التي نخلص إليها في الختام هي وجوب تقويم الطلاب والطالبات في النظام التعليمي حسب قابلياتهم الفطرية لكي يمكن الاستفادة من هذه القابليات بشــكل صحيح. وهذا يستوجب وضع مفردات مختلفة في مناهج التعليم للطالبات وللطلاب تكون متلائمة مع قابلياتهم واســتعداداتهم الفطرية. ونحن نأمل زيادة في البحوث العلمية في هذا المجال لكي يمكن الاستفادة بشكل أفضل من قابليات كلا الجنسين. ■

(*) كاتب وباحث في مجال التربية / تركيا. الترجمة عن التركية: أورخان محمد علي.

الهوامش

(١) IQ: intelligence guatient: أي حاصــل الــذكاء أو درجة الذكاء ونحصل عليها بقســمة السن العقلي للإنســان على عمره وضرب حاصل القسمة في مائة. (المترجم).

(٢) لأن الفص الأيمن يســيطر على الجزء الأيسر من الجسم. والفص الأيسر على الجزء الأيمن منه (المترجم)



شهادات استشراقية

أنصفت الحضارة الإسلامية

د. عماد عجوة*

نستقرئ مما اعترف به المنصفون من المستشرقين أن الحضارة الإسلامية كانت هي صاحبة الفضل في إرساء الحجر الأساس للحضارة الأوروبية الحديثة؛ حيث أسهمت بكنوزها في الطب والكيمياء والرياضيات والفيزياء في الإسراع بقدوم عصر النهضة وما صحبه من إحياء للعلوم المختلفة. فبينما كانت الحضارة الإسلامية تموج بديار الإسلام من الأندلس غربا لتخوم الصين شرقا كانت أوربا وبقية أنحاء المعمورة تعيش في ظلام حضاري وجهل، وامتدت هذه الحضارة القائمة بعدما أصبح لها مصارفها وروافدها لتشع على الغرب وتطرق أبوابه. فنهل منها معارفه وبهر بها لأصالتها المعرفية والعلمية.

فلم تَخلُ أوروبا من مؤرخين أبصروا ما للمسلمين من فضل في الحضارة الإنسانية على الحضارة الأوروبية؛ فألفوا كتباً ودراسات منصفة تشيد بفضل المسلمين الذي لا يمكن إنكاره. فقد نذكر نفرًا منهم درسوا هذه الحضارة دراسة وافية وأبدوا إعجابهم بها.

فمثلاً يقول "توماس أرنولد": "كانت العلوم الإسلامية وهي في أوج عظمتها تضيء كما يضيء القمر فتُبدد غياهب الظلام الذي كان يلف أوربا في القرون الوسطى."

ويقول "جورج سارتون" في كتابه "مقدمة في تاريخ العلم": "إنّ الجانب الأكبر من مهام الفكر الإنساني اضطلع به المسلمون؛ فـ"الفارابي" أعظم الفلاسفة، و"المسعودي" أعظم الجغرافيين، و"الطبري" أعظم المؤرخين".

كذلك يُبدي "تومبسون" إعجابه بالعلوم الإسلامية فيقول: "إن انتعاش العلم في العالم الغربي نشأ بسبب تأثر شعوب غربيّ أوربا بالمعرفة العلمية العربية وبسبب الترجمة السريعة لمؤلفات المسلمين في حقل العلوم ونقلها من العربية إلى اللاتينية لغة التعليم الدولية آنذاك." ويقول في مكان آخر: "إن ولادة العلم في الغرب ربما كان أمجد قسم وأعظم إنجاز في تاريخ المكتبات الإسلامية."

هذا، وقد أبدى الباحث اليهودي "فرانز روزانتال" إعجابه الشديد ودهشته البالغة لسموّ الحضارة الإسلامية وسرعة تشكلها، فيقول: "إن ترعرع هذه الحضارة هو موضوع مثير ومن أكثر الموضوعات استحقاقًا للتأمل والدراسة في التاريخ. ذلك أن السرعة المذهلة التي تم بها تشكل وتكوّن هذه الحضارة أمر يستحق التأمل

العميق، وهي ظاهرة عجيبة جدًّا في تاريخ نشوء وتطور الحضارة، وهي تثير دومًا وأبدًا أعظم أنواع الإعجاب في نفوس الدارسين. ويمكن تسميتها بالحضارة المعجزة، لأنها تأسست وتشكلت وأخذت شكلها النهائي بشكل سريع جدًّا ووقت قصير جداً، بحيث يمكن القول إنها اكتملت وبلغت ذروتها حتى قبل أن تبدأ."

وقد أشاد أحد الباحثين وهو "روبرت بريفولت" بالحضارة الإسلامية فقال: "إن القوة التي غيرت وضع العالم المادي كانت من نتاج الصلة الوثيقة بين الفلَكيين والكيميائيين والمدارس الطبية. وكانت هذه الصلة أثرًا من آثار البلاد الإسلامية والحضارة العربية. إن معظم النشاط الأوربي في مجال العلوم الطبيعية إلى القرن الخامس عشر الميلادي كان مستفادًا من علوم العرب ومعارفهم، وإني قد فصلت الكلام في الدور الذي لعبته العربية في اليقظة الأوربية، لأن الكذب والافتراء كانا قد كثرا في العصر الحاضر، وكان التفصيل لا بد منه للقضاء عليهما".

ويقول المستشرق "أدم متز" في كتابه "الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري": "لا يعرف التاريخ أمة اهتمت باقتناء الكتب والاعتزاز بها كما فعل المسلمون في عصور نهضتهم وازدهارهم، فقد كان في كل بيت مكتبة."

ويقول "رينيه جيبون": "لم يدرك كثير من الغربيين قيمة ما اقتبسوه من الثقافة الإسلامية، ولا فقهوا حقيقة ما أخذوه من الحضارة العربية في القرون الماضية".

ويذكر "هينولد" أن ما قام على التجربة والترصد هو أرفع درجة في العلوم، وأن المسلمين ارتقوا في علومهم إلى هذه الدرجة التي كان يجهلها القدماء. فقد قام منهاج المسلمين على التجربة والترصد وكانوا أول من أدرك أهمية المنهاج في العالم، وظلّوا عاملين به وحدهم زمنًا طويلاً.

ويقول "دُولنبر" في كتاب "تاريخ الفلك": "لقد منَح اعتمادُ العرب على التجربة مؤلفاتِهم دقة وإبداعاً، ولم يبتعد العرب عن الإبداع إلا في الفلسفة التي كان يتعذر قيامها على التجربة". ويستطرد قائلاً: "ومن مباحثنا في أعمال العرب العلمية أنهم أنجزوا في ثلاثة قرون أو أربعة قرون من الاكتشافات ما يزيد على ما حققه الأغارقة في زمن أطول من ذلك كثيرًا، وكان تراث اليونان قد انتقل إلى البيزنطيين الذين عادوا لا يستفيدون منه زمنا طويلا، ولما آل إلى العرب حوّلوه إلى غير ما كان عليه، فتلقّاه ورثتهم (يقصد الأوروبيين حديثاً) وحوّلوه مخلوقاً آخر."

ويقول "مسيو ليبري": "لو لم يظهر المسلمون على مسرح التاريخ لتأخرت نَهضة أوروبا الحديثة عدة قرون". ولقد أشار أيضاً إلى هذا المعنى المؤرخُ الفرنسيُّ الشهير "سديو" في تاريخه الكبير، الذي ألفه في عشرين سنة، بحثًا عن تاريخ المسلمين، وعظيم حضارتهم، ونتاجهم العلمي الهائل، فقال: "لقد استطاع المسلمون أن ينشروا العلوم والمعارف والرقيَّ والتمدُّن في المشرق والمغرب، حين كان الأوروبيون إذ ذاك في ظلمات جهل القرون الوسطى...." إلى أن يقول: "ولقد كان العرب والمسلمون – بما قاموا به من ابتكارات علمية– ممن أرْسَوا أركان الحضارة والمعارف، ناهيك عما لهم من إنتاج، وجهود علمية، في ميادين علوم الطب، والفلك، والتاريخ الطبيعي والكيمياء والصيدَلَة وعلوم النبات والاقتصاد الزراعي وغير ذلك من أنواع العلوم التي ورثناها نحن الأوروبيين عنهم، وبحقٍّ كانوا هم معلمينا والأساتذة لنا." ويذكر العلامة "سديو" أيضا: "أن المسلمين سبقوا كيبلر وكوبرنيك في اكتشاف حركات الكواكب السيارة على شكل بَيضي وفي دوَران الأرض. وفي كتبهم من النصوص ما تعتقد به أن نفوسهم حدثتهم ببعض اكتشافات العلم الحديث المهمة".

هذا، ولم ينسَ فضلاء علماء الغرب أن يعترفوا بهذه الحقيقة، ونستقي من كتاب "حضارة العرب" لـ"غوستاف لوبون" حيث يقول: "وكلما أمعنا في دراسة حضارة العرب والمسلمين وكتبهم العلمية واختراعاتهم وفنونهم ظهرت لنا حقائق جديدة وأفاق واسعة، ولسرعان ما رأيتَهم أصحاب الفضل في معرفة القرون الوسطى لعلوم الأقدمين، وإن جامعات الغرب لم تعرف لها مدة خمسة قرون موردًا علميًّا سوى مؤلفاتهم، وإنهم هم الذين مدّنُوا أوروبا مادة وعقلاً وأخلاقا، وإن التاريخ لم يعرف أمة أنتجت ما أنتجوه في وقت قصير، وأنه لم يَفُقْهم قوم في الإبداع الفني". ويستطرد قائلاً: "ولم يقتصر فضل العرب والمسلمين في ميدان الحضارة على أنفسهم؛ فقد كان لهم الأثر البالغ في الشرق والغرب، فهُما مدينان لهم في تمدّنهم، وإن هذا التأثير خاص بهم وحدهم؛ فهم الذين هذّبوا بتأثيرهم الخُلُقي البرابرة، وفتحوا لأوروبا ما كانت تجهله من عالَم المعارف العلمية والأدبية والفلسفية، فكانوا مُمدِّنين لنا وأئمة لنا ستة قرون. فقد ظلّت ترجمات كتب العرب ولا سيما الكتب العلمية مصدرًا وحيدًا

للتدريس في جامعات أوروبا خمســـة أو ستة قرون. فعَلى العالم أن يعترف للعرب والمسلمين بجميل صنعهم في إنقاذ تلك الكنوز الثمينة".

ويذكر المســـتعرب الصيـــني "لي قوان فبـــين" وكيل وزارة الخارجية الصينية، وعضو مجمع الخالدين (اللغة العربية) بالقاهرة، وصاحب الدراسات العاشقة لتراث وحضارة العرب والمسلمين "أن الحضارة الإسلامية من أقوى حضارات الأرض، وأنها قادرة على اجتياز أي عقبات تواجهها لأنها حضارة إنســـانية الطابع، عالمية الأداء، رفيعة القدر علميًا وفكريًّا وثقافيًا. وبعدما تعمّقتُ في الأدب العربي القديم والحديث ازْداد اقتناعي بأن الشرق يمتلك ســـحر الحضارة والأدب والثقافة، وأنه صاحبُ الكلمة المفكِّرة والعقلية المنظمة؛ إذن فالحضارة الإســـلامية تحمل عوامل البقاء، لأنهـــا عصية على الهدم، لتوافر أركان التجدد والحيوية في نبضها المتدفق، وهي من أقوى حضارات الأرض قاطبة؛ لأنها تستوعب كل ما هو مفيد من الآخر وتصهَره في نفسها ليصبح من أبنائها، بخـــلاف الحضارة الغربيـــة المعاصرة، كما أن الحضـــارة العربية الإسلامية تتســـم بأنها عالمية الأداء والرســـالة، إنسانية الطابع، جوهرها نقي ومتسامح".

ويقول الدكتور "خوســـيه لويس بارســـلو" أحد الباحثين الأسبان: "يجب أن نقرر الأهمية الحقيقية لتأثير العلوم الإسلامية، فهي من الناحية الموضوعية قد ساعدت على وجود المعايير الطبية الحالية". ويذكر من هذا المنطلق: "فقد أرســـى الإســـلام مدنية متقدمة تعد في الوقت الحاضر من أرْوع المدنيات في كل العصور، كذلـــك فإنه أيضا قد جمع حضـــارة متينة متقدمة، وذلك إذا ما طرحنا جانبًا الاضمحلالَ الواضح للقوى السياســـية، والتفكك الظاهر للدول الإســـلامية. فإن الشخصية الجماعية للإسلام قد صمَدتْ أمام كافّة أنواع التغيرات، ذلك لأن معيار الشـــخصية الجماعية هو المدنيةُ عامة والتقاليد التي لم تنطفِئْ أو تَخمُد. هذه هي روح الإسلام كما يجب أن يفهمها أولئك الذين يحاولون عن عمدٍ وسوء نية تشويه صورته".

وقد حان الوقت لنستذكر هذه الحقائق عن حضارتنا آملين الإفادة منها لنهوضنا من جديد. ■

(*) باحث في التاريخ والحضارة الإسلامية / مصر.



لمَنْ ستكون الدنيا؟

راكضون لاهثون...
على الدنيا يتسابقون...
الأقوياء في خضمها يتصارعون...
ومفتولَ عضلاتهم يستعرضون...
والحشود في صمتٍ ينظرون...
قانعون خانعون...
وبسماتِ الأيام يستجْدون...
أما المظلومون...
فهم يتألمون...
وحظهم العاثر يندبون...
* * *

فلسفة الإسلام
في التعايش مع الآخر الديني والثقافي

أ.د. محمد عمارة *



يؤسس القرآن الكريم لفلسفة إسلامية متميزة في رؤية الكون والحياة والعلاقات بين الأحياء. وفي هذه الفلسفة الإسلامية المتميزة معالم رئيسية، يمكن أن نشير إلى عدد منها:

أ- أن الواحدية والأحدية هي فقط للذات الإلهية.[1]

ب- وأن التنوع والتمايز والتعدد والاختلاف هو سنة إلهية كونية مطردة في سائر عوالم المخلوقات. وأن هذه التعددية هي في إطار وحدة الأصل الذي خلقه الله سبحانه وتعالى. فالإنسانية التي خلقها الله من نفس واحدة تتنوع إلى شعوب وقبائل وأمم وأجناس وألوان. وكذلك إلى شرائع في إطار الدين الواحد. وإلى مناهج، أي ثقافات وحضارات في إطار المشترك الإنساني الواحد، الذي لا تختلف فيه الثقافات. كما تتنوع إلى عادات وتقاليد وأعراف متمايزة حتى داخل الحضارة الواحدة، بل والثقافة الواحدة.

وهذا التنوع والاختلاف والتمايز يتجاوز كونه "حقًّا" من حقوق الإنسان، إلى حيث هو "سنة" من سنن الله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً﴾(النساء:١).. ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۞ إِلاَّ مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾(هود:١١٨-١١٩). وكما يقول المفسرون: "فللاختلاف خلقهم".

فالواحدية والأحدية فقط للحق سبحانه.. والتنوع هو السنة والقانون في كل عوالم المخلوقات.

جـ- وأن هذا التنوع والتمايز والتعدد والاختلاف له مقاصد عديدة، منها: تحقيق حوافز التسابق على طريق الخيرات بين الفرقاء المتمايزين: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا

الْخَيْـرَاتِ﴾ (المائـدة:٤٨). ومنها: فتح أبـواب الحرية للاجتهاد والتجديد والإبداع، الذي يسـتحيل تحقيقـه دون تفرد وتمايز واختلاف: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾(البقرة:١٤٨).

د- وأن علاقـة الفرقـاء المتمايزين والمختلفـين والمتعددين يجب أن تظل في إطار الجوامع المَوَحِّدة، وعند مسـتوى التوازن والعدل والوسطية: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾(البقرة:١٤٣). "فالوسـط" -بنص الحديث النبوي- هو "العدل" الذي يجب أن يحكم علاقات الفرقاء المختلفين،" (رواه الإمام أحمد).

هـ- فإذا اختلت موازين العدل والوسط بين الفرقاء المختلفين والمتمايزين في الطبقات الاجتماعية أو الشرائع الدينية أو الفلسفات أو الحضارات، فإن الفلسفة الإسلامية تحبذ طريق "التدافع" الذي هو حراك يُعَدّل المواقف والمواقع والاتجاهات، فينتقل بها من مستوى الخلل والظلم والجور والعدوان إلى مستوى العدل والتوازن والوسط والتعايش والتعارف، مع المحافظة على بقاء التنوع والتمايز والتعدد والاختلاف: ﴿وَلاَ تَسْتَوِي الْحَسَـنَةُ وَلاَ السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾(فصلت:٣٤).

وهـذا "التدافع" الذي هو وسـط بين تفريط "السـكون والموات" وبين إفراط "الصراع"، هو المزكي للتعددية، وللتنافس والتسـابق على طريق الخيرات، بينما السكون يفضي إلى الموات للمسـتضعفين. كما أن الصراع يفضـي إلى نفس النتيجة؛ لأن القوي يصرع الضعيف، فينفرد بالساحة، وينهي التعدد والتمايز والاختلاف. فالتدافع هو الذي يُعَدّل المواقف الظالمة، مع الحفاظ على التعددية وعلى التنافس والتسـابق على طريق الخيرات. فهو سبيل للإصلاح في ظل التنوع والتعدد، وليس على أنقاض التنوع والتعدد: ﴿وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَـدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾(البقرة:٢٥١).(٢)

هـذا هو موقع التنوع والتعدد والتمايز والاختلاف في الرؤية الإسـلامية للكون والحيـاة والعلاقات بين عـوالم المخلوقات والأفكار، ودور هذا التنوع في التقدم والإصلاح.

وذلك هو تميز الفلسفة الإسلامية بالوسطية الجامعة عن غيرها من نزعاتِ وفلسفات الدمج القسري للكل في واحد.. أو نزعات وفلسفات الصراع التي تفضى هي الأخرى إلى انفراد طرف واحد -هو الأقوى- بالساحة والامتيازات. فطرَفا الغلو يفضى كل منهما إلى ذات النهاية.. وبينهما تتميز الوسطية الإسلامية في هذا الميدان..

مع الآخر الديني

وفي دولة النبوة بالمدينة المنورة سـنّ رسـول الله ﷺ ثلاث سنن جسّدت فلسفة الإسـلام في العلاقة بالآخر الديني؛ الكتابي منه والوضعي: اليهـود والنصارى، والمجوس ومـن ماثلهم.. ولقد صيغت هذه السـنن النبوية، المعبرة عن هذه الفلسفة الإسلامية، في وثائق دسـتورية، طبّقتها دولة النبـوة، ورعتها دولة الخلافة الراشدة، وظلت مبادئها مرعية إلى حد كبير عبر تاريخ الحضارة الإسلامية وأوطان عالم الإسلام.

١-مع الآخر اليهودي

وأُولى هذه الوثائق الدستورية هي "الصحيفة، الكتاب"، دستور دولة المدينة المنورة، الذي وضعه رسـول الله ﷺ عقب الهجرة، وفـور إقامة "الدولة" ليحدد حـدود الدولة، ومكونات رعيتها (الأمـة)، والحقوق والواجبات لوحدات الرعية، بمن فيهم الآخر الديني (اليهود العرب وحلفاؤهـم العبرانيون)، وليحدد كذلك المرجعية الحاكمة للدولة ورعيتها.

وفي هذه الوثيقة الدستورية تحدثت موادها -التي زادت على الخمسـين مادة- عن التنوع الديني في إطار الأمة الوليدة والدولة الجديدة، وعن المسـاواة بين الفرقاء المتنوعين، فقالت عن العلاقة بين المسلمين واليهود، أي عن التنوع الديني في إطار وحدة الأمة: "..ويهـودُ أمةٌ مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسـلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم، وأن بطانة يهود كأنفسهم، إلا من ظلم وأثم، فإنه لا يوتغ -"يُهلك"- إلا نفسه وأهل بيته، ومن تبعنا من يهود فإن له النصر والأُسـوة مع البرّ المحض مـن أهل هذه الصحيفة، غير مظلومين ولا مُتَنَاصَرٍ عليهـم، ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين. على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم. وأن بينهم النصـر على من حارب أهل هـذه الصحيفة، وأن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم.." (٣)

فكانت هذه الوثيقة الدستورية أول "عقد اجتماعي وسياسي وديني" -حقيقي وليس مفترضاً ومتوهما- لا يكتفي بالاعتراف بالآخر، وإنما يجعل الآخر جزءً من الرعية والأمة والدولة -أي جزءً من الذات- له كل الحقوق، وعليه كل الواجبات، وذلك في زمن لم يكـن فيه طرف يعترف بالآخر على وجه التعميم والإطلاق.

٢-مع الآخر النصراني

أما الوثيقة الدسـتورية الثانية، فهي خاصـة بالعلاقة مع الآخر

النصراني، وضعها رسول الله ﷺ لنصارى نجران -عهداً لهم ولكل المتدينين بالنصرانية عبر المكان والزمان- وذلك عند أول علاقة بين الدولة الإسلامية وبين المتدينين بالنصرانية. وفي هذا العهد الدستوري كتب رسول الله ﷺ: "لنجران وحاشيتها، وسائر من ينتحل دين النصرانية في أقطار الأرض جوار الله، وذمة محمد رسول الله ﷺ، على أموالهم وأنفسهم وملتهم وغائبهم وشاهدهم وعشيرتهم وبِيَعهم وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير.. أَن أحمي جانبهم وأذبّ عنهم وعن كنائسهم وبيَعهم وبيوت صلواتهم ومواضع الرهبان ومواطن السياح، وأن أحرس دينهم وملّتهم أين ما كانوا بما أحفظ به نفسي وخاصّتي وأهل الإسلام من ملتي؛ لأني أعطيتهم عهد الله على أن لهم ما للمسلمين، وعليهم ما على المسلمين، وعلى المسلمين ما عليهم، حتى يكونوا للمسلمين شركاء فيما لهم وفيما عليهم"(٤)

فبلغت هذه الوثيقة في الاعتراف بالآخر الديني، والقبول به، والتكريم له، والتمكين لخصوصياته، والاندماج معه، ما لم تبلغه وثيقة أخرى عبر تاريخ الإنسانية، مع ميزة كبرى، وهي جعلها لهذا التنوع والاختلاف في إطار وحدة الأمة، تجسيدًا لفلسفة الدين الإسلامي في العلاقة بالآخر، وليس على أنقاض الدين كل دين.

٣-مع الآخر أهل الديانات الوضعية

أما السنة النبوية الثالثة التي قننت للعلاقة بالآخر الديني، فلقد مدّت نطاق الآخر إلى أهل الديانات الوضعية؛ فعاملتهم معاملة أهل الديانات الكتابية. ولقد بدأ تطبيق دولة الخلافة الراشدة لهذه السنة عندما دخل المتدينون بالمجوسية في إطار الرعية الواحدة لدولة الخلافة الراشدة على عهد الراشد الثاني عمر بن الخطاب ﷺ. فلقد عرض عمر ﷺ هذا الواقع الجديد على مجلس الشورى (مجلس السبعين)، وسأل: "كيف أصنع بالمجوس؟" فوثب عبد الرحمن بن عوف ﷺ فقال: "أشهد على رسول الله ﷺ أنه قال: "سُنّوا فيهم سنة أهل الكتاب".(٥)

التواترات الدينية استثناء من السنة النبوية

منذ القرن الهجري الأول ضمت الدولة الإسلامية أوطاناً وديارًا وأقاليم، كما ضمّت شعوبًا وقبائل وديانات وفلسفات ومذاهب جسدت كل ألوان وأطياف التنوع والاختلاف الذي عرفه الإنسان في ذلك التاريخ.

ولقد تعاقب على حكم الخلافة الإسلامية، والدول التي تفرعت عنها وورثت سلطانها ألوان من الخلفاء والسلاطين والولاة، منهم الصالح ومنهم الطالح، ومنهم العادل ومنهم الجائر، ومنهم الذي جمع بين المتناقضات.

ولا يتصور عاقل أن تاريخًا بهذا الطول (قرابة خمسة عشر قرنًا) لأمة بهذا التنوع، وعالم بهذا الاتساع، وفي ظل تحديات خارجية شرسة، يمكن أن يخلو من التوترات الدينية بين الفرقاء الذين عاشوا على أرض الإسلام. لكن النظر إلى هذه التوترات الدينية التي تمثل خروجًا عن السنة النبوية التي تقررت منذ دولة الإسلام الأولى في المدينة المنورة يجب أن يكون في حجمها الحقيقي، وفي إطار مقارنتها بما كانت عليه الحضارات الأخرى، كما حدث بين البروتستانت والكاثوليك في الحروب الدينية الأوروبية التي دامت أكثر من قرنين، وأبيد ٤٠ ٪ من شعوب وسط أوروبا، والحروب بين البيض والسود في أمريكا.. وفوق ذلك ومعه، يجب النظر إلى هذه التوترات الدينية والطائفية في إطار الأسباب الحقيقية التي ولّدت وقائعها وأحداثها.

ولعل شهادة العلماء والباحثين غير المسلمين أن تكون خير شاهد من أهلها على حقيقة حجم هذه التوترات وأسبابها:

فالعالم الإنجليزي الحجة "سير توماس أرنولد" يشهد للحرية الدينية التي قرّرها الإسلام وحضارته، والتي وسعت التنوع والاختلاف، وأتاحت إنقاذ النصرانية الشرقية من الإبادة الرومانية البيزنطية، حتى ليمكن القول: إن بقاء النصرانية الشرقية هو "هبة الإسلام".(٦)

والعالم الألماني الحجة "آدم متز" يتحدث عن دور غير المسلمين في إدارة دواوين الدولة الإسلامية عبر التاريخ الإسلامي، فيقول: "لقد كان النصارى هم الذين يحكمون بلاد الإسلام".(٧)

أما الباحث والمؤرخ المسيحي اللبناني "جورج قرم"، فإنه يرجع التوترات الدينية والطائفية -العابرة والمحدودة- التي شهدها التاريخ الإسلامي إلى عوامل ثلاثة، هي: ١-المزاج الشاذ لبعض الحكام الشواذ الذين حكموا بعض البلاد الإسلامية لبعض الوقت والذين اضطهدوا الأقليات كجزء من اضطهادهم العام للرعية كلها. ٢-صلف الوزراء والجباة والقادة غير المسلمين، واستعلاؤهم على جمهور المسلمين، وثراؤهم المستفز، وظلمهم واضطهادهم لعامة الفقراء المسلمين؛ الأمر الذي ولّد ردود أفعال طائفية لم تقف عند الذين ظُلموا من أبناء هذه الأقليات خاصة، وإنما عمت البلوى جماهير الأقليات. ٣-غواية الاستعمار الأجنبي-الصليبي

والإنجليزي والفرنسي- لقطاعات من أبناء الأقليات، كي تمالئ الغزاة، وتخون أمتها ووطنها، ونجاح هذه الغوايات الاستعمارية في كثير من الأحيان، الأمر الذي ولّد ردود أفعال عنيفة ضد أبناء هذه الأقليات التي وقعت في شباك الغوايات.[٨]

هذا هو حجم التوترات الدينية في التاريخ الإسلامي.. وتلك هي أسباب هذه التوترات، كما شهد بها المنصفون من العلماء والباحثين غير المسلمين.[٩]

العلاقة مع الآخر الثقافي

في الموقف من الثقافات التي تنتشر على النطاق العالمي، وفي إطار الحضارات غير الإسلامية، هناك مواقف ثلاثة، لكل واحد منها أنصار ومحبذون:

وأول هذه المواقف هو موقف المثقف "خالي الشغل"، ذلك الذي يمثل عقله صفحة بيضاء خالية من الموقف والخصوصية والذاتية الحضارية، وتنطبع عليها كل ألوان الوافد والمستورد، حتى لكأن عقله هذا مكتب من مكاتب الاستيراد، التي تعيش بها وعليها طبقة "الكومبرادور" الطفَيلية، التي لا علاقة لها بالإنتاج الوطني والقومي، ولا علاقة لعقولها بالإبداع الفكري والثقافي والحضاري.

وثاني هذه المواقف هو موقف الانغلاق دون الثقافات العالمية جميعها، وتحريم الاستفادة من تجارب الأمم الأخرى في الحفاظ على لغاتها وآدابها وفنونها وثقافاتها، وفي التطوير لهذه الثقافات، والتجريم لكل ألوان الانفتاح على هذه الثقافات.

وأصحاب هذا الموقف يحلمون بـ"المستحيل - الضار".. فما يريدونه مستحيل التحقيق، لأن بناء أسوار صينية بين الثقافات العالمية لم يتحقق قديمًا، فما بالنا به في عصر ثورة وسائل الاتصال؟!

وهذا المستحيل ضار -على فرض إمكان تحققه- لأن الانغلاق الثقافي يؤدي بأصحابه إلى مثل ما يؤدي إليه الإضراب عن الطعام والشراب بجسم الإنسان، حيث يتغذى الجسم على ذاته، فيستهلك هذه الذات، ويصاب بالذبول والضمور والاضمحلال.

وإذا كانت التبعية الثقافية تؤدّي بأصحابها إلى التقليد الذي يذيب التميز، فتضمحل به الذاتية والخصوصية، فإن الانغلاق يقود -هو الآخر- إلى ذات النتيجة البائسة والمأساوية.. فكلا التفريط والإفراط يفضيان إلى مأساة الذبول والاضمحلال للشخصية الوطنية والقومية في الثقافة والحضارة.

موقف التفاعل المتوازن

أما الموقف الثالث من الثقافات العالمية، فهو الوسط العدل الذي يختار طريق "التفاعل" مع الحضارات والثقافات العالمية، من موقع الراشد المستقل، دونما إفراط في الخصوصية يؤدي إلى "الانغلاق" أو تفريط يؤدي إلى "التبعية" والتقليد والذوبان.

وهذا التفاعل مع الثقافات العالمية هو الذي يميّز بين خصوصيتنا الثقافية المتمثلة في منظومة القيم الإسلامية، التي هي معايير القبول والرفض لما لدى الآخرين، وبين ما هو مشترك إنساني عام، سواء أكان هذا المشترك علومًا طبيعية ودقيقة ومحايدة، أو تطبيقات لهذه العلوم في التقنيات التي يتم بها عمران الواقع المادي في المجتمعات الإسلامية، أو كان هذا المشترك الإنساني العام خبرات وتجارب إنسانية في ميادين ترقية الثقافة واللغة وتطعيم ثقافتنا وإثرائها بالقوالب المستحدثة والنافعة في الفضاءات الثقافية الأخرى.

فهذا الموقف الثالث -موقف التفاعل الخلاق بين الثقافات والحضارات- هو النافع... وهو الوسط العدل بين غلوّ الإفراط والتفريط في الانغلاق والعزلة وفي التبعية والتقليد.

بل إن هذا الموقف الثالث (الوسطي والمتوازن والعادل) يكاد يكون هو القانون العادل الذي حكم العلاقات الصحية والناضجة بين الثقافات والحضارات على مر التاريخ.

فالمسلمون عندما انفتحوا على ثقافة مدرسة الإسكندرية في القرن الهجري الأول، ترجموا علوم الصنعة (تقنيات العلوم الطبيعية والدقيقة والمحايدة) ولم يترجموا ديانات مصر (الوثنية أو النصرانية) ولا الفلسفات الهلينية والغنوصية. وكذلك صنع المسلمون عندما انفتحوا على التراث الروماني، منذ عصر الراشد الثاني عمر بن الخطاب ﷺ، فلقد أخذوا نظم الدواوين، دون أن يأخذوا القانون الروماني. وكذلك كان الحال في التفاعل الإسلامي مع الحضارة الفارسية؛ فلقد أخذ المسلمون تجارب الفرس في التراتيب الإدارية، دون أن يأخذوا فلسفات المجوسية وعقائدها الدينية. وبنفس المعايير كان الانفتاح والتفاعل الإسلامي مع المواريث الهندية؛ إذ أخذ المسلمون فلك الهند وحسابها، دون أن يأخذوا فلسفتها وديانتها. ولقد حكمت ذات المعايير الانفتاح الكبير للحضارة الإسلامية على التراث الإغريقي؛ فأخذوا من الإغريق العلوم الطبيعية والتجريبية، دون أن يأخذوا وثنية الإغريق. وبنفس المعايير كان انفتاح الحضارة الأوروبية -إبان نهضتها- على الحضارة الإسلامية، عندما أخذت العلوم التجريبية والمنهج

التجريبي، والخبرات الإسلامية، دون منظومة القيم الإسلامية، والعقائد الإسلامية، وفلسفة العلم عند المسلمين.

إن الخصوصية الثقافية هي الضرورة المحركة للعقل المسلم كي يبدع ويجدد؛ بينما الانغلاق والتبعية والتقليد تفضي إلى الذبول والذوبان والاضمحلال.

لقد تميزت فلسفة الإسلام في النظر إلى الشرائع والملل والنحل الدينية غير الإسلامية، وفي العلاقة بالمتدينين بتلك الشرائع والملل والنحل بالموقف الوسطي الذي قرر أن دين الله واحد، من آدم إلى محمد ﷺ. إن الشرائع السماوية متعددة بتعدد أمم النبوات والرسالات في إطار وحدة عقائد هذا الدين الإلهي الواحد. فتحققت بهذه الفلسفة الوحدةُ الدينيةُ مع التمايز في الشرائع الدينية أيضًا.

وبهذه الفلسفة الإسلامية في النظرة للآخر الديني حقق الإسلام "ثورة إصلاحية.. وإصلاحًا ثوريًّا" تجاوز الاعتراف بالآخر والقبول به والتمكين له، إلى حيث جعل هذا "الآخر في الشريعة" جزءً من "الذات الدينية الواحدة"، وذلك لأول مرة في تاريخ العلاقات بين أبناء الديانات والحضارات.

ووحده الإسلامُ هو الذي بدأت به مسيرة جعل الآخر جزءً من الذات الدينية؛ فقرر للآخَرين ذات الحقوق وذات الواجبات في الدولة والأمة: "لهم ما للمسلمين، وعليهم ما على المسلمين، حتى يكونوا للمسلمين شركاء فيما لهم وفيما عليهم..".

بل لقد جعل الإسلام من الآخر الديني جزءً من أولي الأرحام عندما أقام الأسرة -وليس فقط الأمة- على التنوع الديني. فأصبحت الزوجة الكتابية سكنا يسكن إليها المسلم، وموضع محبته ومودته، بينهما ميثاق الفطرة.. حتى لكأنهما ذات واحدة يجمعها لباس واحد: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾ (البقرة:١٨٧).[١٠]

ولأن فلسفة الإسلام وهي تتطلع إلى المثالي، لا تغفل عن مكنونات "الواقع" تميزت بالعدل الذي لا يضع كل أهل الكتاب في سلّة واحدة وصنف واحد، بينما ميّزت بين فرقائهم بحسب موقف كل فريق من "الكلمة السواء"، التي هي التمايز في الشرائع بإطار وحدة الدين: "الأنبياء أبناء علاّت، دينهم واحد، وأمهاتهم شتّى" (متفق عليه). ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران:٦٤).

فأهل الكتاب ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ۞ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ۞ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾(آل عمران: ١١٣-١١٥).

وليس من العدل أبدًا التسوية بين هؤلاء الذين تفيض أعينهم من الدمع مما عرفوا من الحق، وبين الذين دخلوا في لون من الشرك والكفر: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾(المائدة:٧٢).

لكن الإسلام مع هذا التمييز بين فرقاء أهل الكتاب، والعدل في التمييز بين مواقفهم من "الكلمة السواء"، قد جعل حساب كل ذلك إلى الله وحده يوم الدين. أما في الدنيا والدولة والتكريم الإلهي لمطلق بني آدم، فقد قرر الإسلام لكل هؤلاء الفرقاء ذات الحقوق وذات الواجبات التي قررها للمسلمين المؤمنين بكل الكتب وكل النبوات والرسالات.. وبنص عبارة رسول الله ﷺ في عهده لنصارى نجران وكل من ينتحل دعوة النصرانية: "فإن لهم ما للمسلمين، وعليهم ما على المسلمين، وعلى المسلمين ما عليهم، حتى يكونوا للمسلمين شركاء فيما لهم وفيما عليهم".

تلك هي مرتكزات التعايش مع الأديان الأخرى، في القرآن الكريم، وفي التطبيق النبوي لهذا القرآن الكريم.. ■

(*) كاتب ومفكر إسلامي / مصر.

الهوامش

(١) انظر: ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ۞ اللهُ الصَّمَدُ ۞ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۞ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾(الإخلاص: ١-٤).

(٢) وانظر: ﴿وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيراً..﴾(الحج: ٤٠).

(٣) مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، لمحمد حميد الله، القاهرة ١٩٥٦ م، ص١٥-٢١.

(٤) مجموعة الوثائق السياسية، لمحمد حميد الله، ص١٢٣-١٢٨.

(٥) فتوح البلدان، للبلاذري، القاهرة ١٩٥٦م، ص ٣٢٧.

(٦) الدعوة إلى الإسلام، سير توماس أرنولد، القاهرة ١٩٧٠، ص ٧٢٩-٧٣٠.

(٧) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، آدم متز، بيروت ١٩٦٧م، ١/١٠٥.

(٨) تعدد الأديان وأنظمة الحكم، جورج قرم، بيروت ١٩٧٩م، ص ٢١١-٢٢٤.

(٩) انظر: السلوك لمعرفة دول الملوك، للمقريزي (٧٦٦-٨٤٥هـ)؛ عجائب الآثار، للجبرتي (١١٦٧-١٢٣٧هـ).

(١٠) وانظر: ﴿وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾(النساء: ٢١).



الثالثة إلا عشر دقائق

محمد ساجد أرواسي*

هتفت وهي تنزل السلم مسرعة:

– حسنًا!.. حسنًا!.. أتيتك!

الظاهر أن طارق الباب كان على عجل!... لأنه ما إن لمس مطرقة الباب لم يدع الطَّرْق... كان يطرق باستمرار... وعندما فتحت الحاجّة حسيبة الباب بقلق ممزوج بالغضب، ذهلت و لم تصدق عينيها:

– جميل!!..

لفظتْ اسم ابنها في صرخة نداء من بين شفتيها...

...

كانت العمة حسيبة قد ودّعت فلذة كبدها جميل إلى "سيبيريا" مدرّسًا قبل ستة أشهر، و لم يجُلْ في خيالها أنه سيعود هكذا مبكرًا.

وقبل ذهابه إلى سيبيريا كانت قد انتظرته أعواما وأعواما بنافذ الصبر لينهي دراسته الجامعية. فبينما هي تأمل أن تنقضي أيام الفراق وتتحقق آمالها الحلوة فيه، إذا به يفاجئها بقوله:

– يجب أن أذهب...

يجب أن أذهب يا أمي!.. عليّ أن أكرّس عمري من أجل هدف إنساني!..وعليك أنت أن تهبي ابنك لهذا الهدف، مثلما فعل أسلافنا، فوهبوا أعمارهم وثرواتهم وأبناءهم.

فحقّ فيها ما قيل:

"فارَقَتْه لم تكن عالمة أنّ يوم الملتقى يوم اللّقاء"

...

هكذا هي امرأة الأناضول.. رمز التضحية والبراءة والصفاء...

فكلّما استمعت إليه لاحت لها بوارق الحق في كلامه، قالت له:

– اذهب يا بني!..

ودّعته كالأمهات اللواتي أرسلن أبناءهن للدفاع عن الوطن من محطة "بيلَجِكْ"، قائلة:

– اذهب يا بني!.. اذهب.

فذهب إلى سيبيريا القارسة البرد التي ما لبثت حتى تحولت في عزيمته إلى أكثر الأنسام عذوبة ودفئاً.

ولكن في المساء الأخير قبيل ذهاب ابنها، وكان رأس ابنها في

حجرها، تداعب شعر رأسه كما كانت تفعل عندما كان طفلاً فتحت صندوق عرسـها وأخرجت منه ساعة بسلسلة وقدمتها له قائلة:

– خذ يا بني!.. هذه الساعة ذكرى من والدك، ورثها هو من والده... ستتذكر أمك وستدعو لأبيك كلما نظرت إليها..

قبّل يدي أمه ومسح وجهه بيديها:

– وهل يمكن أن أنساكِ يا أمي؟!.

ثم نهض وأخرج ساعة دقاقة من حقيبته:

– ما دام الأمر هكذا... إذن أترُك لك ساعتي هذه... ليست ساعة اعتيادية يا أمي!.. إنها تدق مع دقات قلبي...

كان جميل قد أضاف ثلاث حلقات إلى الساعة. كان هناك سـهم متّجه من كل حلقة نحو مركز السـاعة. في الحلقة الأولى كانـت توجد كلمة "الفجر" وفي الثانيـة كلمة "الضحى" وفي الثالثة حـرف "ت"(١) فقط. كانت هذه الحلقات موجودة على الساعة وحسب الأوقات.

فتح عينيه على جـو جديد من الحياة، لذا فما إن يصحو في الفجر ويصلي حتى يغيّر ساعته على حلقة الضحى ثم على حرف "ت". شرح هذا لأمه ثم قال لها:

– اعملي أنت الشيء نفسه يا أماه!!.. وادْعي لي!

ثم حدثها عن أشياء كثيرة...

أيقظته أمه في ساعة صلاة الفجر وودعته.

...

سافر إلى سيبيريا كأنه فارس على صهوة جواد من نور ينطلق في الظـلام مودعا أمه في الفجـر... ينطلق إلى أماكن لم تر بعد نور الشمس ولم يلمسها بعد شعاعها الذي يحيي الموات. وبينما كانت تتوقع أن تتأخر هذه العودة إذا بها تراه أمامها. وكما تفعل كل أمّ فقد فتحت ذراعيها إلى أقصى ما تستطيع واحتضنته...

فتحـت عينيها على غرفة مظلمة، فصحـتْ من رؤياها... تقلبت في فراشـها ببطء وهي تتنهد قائلـة: "آه يا بني!" كانت الساعة تشـير إلى وقت حلقة "ت"، تمتمت بوهن وهي تضغط على زر الساعة:

– هـذه الليلة لم تبـق لي حاجـة إليكِ... لقـد أيقظني صاحبكِ.

قامت وتوضأت... وعندما فرشت سجادتها ألقت نظرة على الساعة... كان مِيلاَ الدقائق والساعات متوقفين، وكانت الساعة تشير إلى السـاعة الثالثة إلا عشر دقائق. تناولت الساعة وتمعّنت فيها... عجباً! كانت الساعة متوقفة... وبدون أن تشعر، ودون أن تَدري السبب هتفت:

– آه يـا بني!.. كيـف عرفت أن السـاعة متوقفة فقمت بإيقاظي؟!!..

وقفت خاشـعة للصلاة... كانت في حالة روحية غريبة... تضرعت وقرأت الأدعية حتى الصباح.

.....

بعد أيام دُق بابها دقات وجلة ومترددة... نزلت ودرَجُ البيت القديم يصرّ تحت قدميها، وفتحت الباب... كان هناك شـابّان وضيئا الوجه... قال الشاب الطويل بصوت خافت:

– هل أنت العمّة حسيبة؟!

– أجل!

– هل نسـتطيع الدخول يا عمة حسـيبة؟.. نحن أصدقاء "جميل".

لمعت عينا العمة حسيبة. قالت بفرحة غامرة:

– طبعًا!.. طبعا!.. تفضلوا يا أولادي!..

ثم أردفت بانفعال:

– "جميل"... هل أتى "جميل" أيضاً؟

– كلا!.. لم يأت جميل يا عمة حسيبة.

– ولكن هذه الحقيبة في يدك هي حقيبته!.

نكّس كلاهما نظرهمـا إلى الأرض... ربّاه!.. كم كان هذا الأمر صعبًا.. تمالك أحدهما نفسه بصعوبة وقال:

– هذه الحقيبة حقيبته يا عمة حسيبة! ولكنه...

لم يسـتطع أن يكمل الجملة... تحولت الكلمات عنده إلى دموع... فهمتْ العمة حسـيبة... وهل هناك أحد يفهم أفضل من الأم لغةَ الدموع؟ تهاوت في مكانها... مَن يدري كم اسـتمر ذرفها للدموع... ثم قالت أخيراً:

– "إنا لله وإنا إليه راجعون"...

ارتسـم التوكل وتسـليم أمرها لله خطوطا على وجهها. سألت:

– كيف حدث هذا؟

– مرض قليـلا.. ذهبنا به إلى الطبيب... كان يسـير نحو الشفاء... في تلك الأمسية أيضًا كان وضعه جيدًا حتى إن طلابه جاؤوا لزيارته، وبعد أن غادروا قال:

– أعتقد أنني تعبت...

وذهب إلى غرفته. نام و لم يستيقظ.

– وأين نعشه؟..

قالت هذا، وأخذتها نوبة أخرى من البكاء.

مدّ الشاب الطويل بعض الأوراق إليها وقال:

– وجَدْنا في الصباح هذه الأوراق في جانبه... وكأنه أحسّ بدنو أجله... كان يصرّ في هذه الأوراق على دفنه في اليوم الثاني في البلـــدة التي تُوفّي فيها... لم نجد بُـــدّاً من تنفيذ وصيته فقمنا بدفنه في حديقة مدرســـتنا... أي في مكان يســـتطيع فيه سماع أصوات طلابه الذين أحبهم كثيرًا.

ثم أخرج من جيبه ســـاعةً بسلسلة وظرفَ رسالة، وقدّمهما للعمة حسيبة قائلا:

– لقد ترك هذه الأغراض لكِ يا عمة... هذه ســـاعة ابنك، وهذه هي الرسالة الأخيرة التي كَتبها لك.

لفّتْ العمة حسيبة السلسلة على ذراعها وأخذت الساعة في راحة يدها. ثم –وبيد مرتعشـــة– أخذت الرسالة... قربتها من شفتيها وقبلتها ثم بكت طويلا. وعلى الرغم من حالها المؤلم فقد حافظت على رقّتها وأدبها الجم وقالت لهما:

– أرجو المعذرة منكما...

ثم قامـــت وذهبت إلى الأريكة الطويلة التي جلســـت عليها مع ابنها لآخر مرة... كان ابنها قد وضع رأســـه في حجرها... تذكرت كلماته الأخيرة لها:

– لم يبق لي يا أمي ســـوى الدعاء لـــك... أما أنا، فمُهمّتي تقديم خدماتي حتى الرمَق الأخير... وربما ســـنجلس معا يا أمي في الجنة على أريكة من الزمرّد، وسأضَع هناك رأسي في حجرك وستلمســـين شعري وتنشدين لي أغنية من أغاني الأطفال... وما أجمل أن يضع ابن رأســـه في حجر أمه ليســـمع أغنيتها الحنونة الصادرة من قلبها في مقرٍّ فـــوق الزمان والمكان... آه! ما أجمل هذا!!..

وبصعوبة فتحت الرسالة:

– أماه!.. لا أدري هل أســـتطيع إتمام رسالتي هذه قبل وفاتي أم لا؟.. أريـــد أن تحتفظي برســـالتي هذه ســـرًّا بينك وبيني... ما أبرد هذا البلد يا أماه... أشـــعر بالقُشَـــعْرِيرة وهي تسري في جسدي... أشعر بالبرد يا أمي... أكتب هذه الرسالة على فراش المرض... جاء تلاميذي في المساء لزيارتي... طلبت منهم الدعاء لي بالشفاء... آهٍ يا أمي، لو شاهدت كيف دعوا... لو شاهدت أســـلوب وكيفية دعائهم... لو كانـــت لي ألف روح وتجمّدت كل منها واحدة إثر أخـــرى لَما ترددت في المجيء إلى هذا البلد البارد. لو كنت هنا إلى جانبي لهيأتِ لي شراب النعناع واللّيمون لأعرق وأشـــفى. لم أعُد الآن أحزن لعدم كونك معي وبجانبي، لأنني غفوت لحظة فإذا ببابي يُفتح ويدخل شـــخص نوراني... ما إن رأيته حتى حاولت أن أهبّ من مكاني.. ولكني لم أســـتطع.. فقد كنت خائر القُوى.. قال لي:

– هل أصبت بالبرد يا جميل؟ هل بردت كثيرا يا جميل؟..

تصوري! قال لي "يا جميل؟!" ثم نزع بردته وألبسني إياها... والأَهم أنه قال:

– تعال!.. لن تشعر بالبرد من الآن فصاعداً... وإلى الأبد..

وفي أثناء محاولتي القيام مـــن الفراش وقعت على الأرض... سأُلبّي دعوته يا أماه!.. وقد أمرّ بك قبل الذهاب... لا تحزني يا أماه من أجلـــي... ولن أحزن من أجلك... عندما ودّعتِني قلتِ لي:

– أستودعك الله...

وأنا الآن أســـتودعك الله وأدعكِ في كنفه وفي كنف رسوله وحبيبه... أُتلِي ســـورة الفاتحة من أجلي... ودُمتِ في رعاية الله وحفظه يا أماه!.

ابنك جميل...

...

وقعت الرسالة من العمة حسيبة، وتحركت شفتاها دون إرادة منها بسورة الفاتحة. وكأنها تتلو له قصيدة حب. وفيما هي تمسح وجههـــا بيدَيها وقع نظرها على الســـاعة التي أعطَتها لجميل... ســـاعة العائلة وميراثها... كانت متوقّفة وتشير إلى الساعة الثالثة إلا عشر دقائق. ■

(*) كاتب وأديـــب تركي. الترجمة عن التركية: أورخـــان محمد علي. وهي قصة حقيقية وقعت في بلاد الجليد، سيبيريا.

(1) وهو الحرف الأول من كلمة "التهجد".(المترجم)

قصة

الانتصار الأخير

عمر فاروق كولدرن*

١

أقبل هذا المساء على المدينة المغمورة بالثلوج موحشا كئيبا.. وألقى عليها مع قساوة البرد وشاحا أسود حزيناً.. الغيوم السوداء تخنق الضوء والنور.. صمتٌ كالح.. هدوء مخيم على الشوارع.. وإذا بحافلة البلدية تقف بفرملة مزعجة تخدش الآذان.. نزل وهو شارد الذهن.. رفع رأسه ودار بنظراته الحزينة هنا وهناك.. وقف لحظات ثم أخذ يسير في طريقه رويداً رويداً..

الأمر هذه المرة جد مختلف.. شحب وجهه وتندت عيناه بالدموع.. تنهد ثم تمتم في أسى:

– إنا لله وإنا إليه راجعون!..

دَق الجرسَ.. فتحت زوجته الباب والقلق العميق باد على وجهها.. ركزت نظراتها في وجهه الشاحب آملة أن يخبرها عما جرى معه اليوم.. نظر إليها وابتسم ابتسامة باهتة ودخل بهدوء.. توقعت أن الأمر ليس على ما يرام!.. وما إن رأى أطفاله حتى احتضنهم وضمهم إلى صدره بشوق وقبّلهم بحرارة وكأنه يودّع.. توجهت زوجته "وفاء" نحو المطبخ لتحضير العشاء وقد احتل الضيق صدرها.

وخلال تناولهم الطعام كان "صابر" معتصما بالصمت وغارقا في التفكير.. لم يمازح أولاده ويداعبهم، لم يسألهم عن يومهم في المدرسة هذه المرة.. وعندما كانت وفاء تجمع أطباق الطعام من فوق المائدة ملأ جميع أطراف الغرف صوت ندي.. أذان العشاء يُرفع.. نهض صابر من مكانه وتوجه إلى المغسلة ليتوضأ.. انزوى في غرفة كان قد جعلها مسجدا في بيته.. وبعد لحظات وقف وأهله إلى الصلاة في جماعة.. وقف باستسلام خاشعاً متضرعاً.. ارتجف صوته وتساقطت دموعه على خديه واحدة إثر الأخرى.. لم يعد يشعر بنفسه أو بما حوله.. كان يوقن أن الله معه وقريب منه جداً.. وبعد الأوراد والتسبيحات قام أولاده فقبّلوا يده ثم ذهبوا إلى غرفهم، عندها سددت وفاء نظراتها إليه وقالت بصوت خافت:

– ما الأمر يا عزيزي، لستَ طبيعيا اليوم؟!..

– اطمئني أنا بخير الحمد لله..

– هل ذهبت إلى المستشفى؟

– نعم ذهبت!..

– وماذا قال لك الدكتور؟!..

– لم يقل شيئاً مهماً.

اجتاحتها موجة من الضيق.. وحط على قلبها حزن عميق أسود.. دارت بنظراتها الحزينة في جنبات الغرفة وقد تشبعت عيناها بالدموع.. عرفت أن حالة زوجها ليست جيدة هذه المرة.. اقتربت منه ثم جلست إلى جواره بتأدب وأسندت رأسها على كتفه:

– أرجوك يا عزيزي لا تخف عني شيئاً..

كان لا يريد أن يحزنها أكثر، ولا يريد أن يبين عن همومه واضطرابه.. ولكن..

قال وعيناه على المكتبة:

– قال لي الدكتور بأن مرضي انتقل إلى الرئة.

– إلى الرئة!؟..

– نعم، ولكن لا تقلقي!.. لكل داء دواء.. والشافي هو الله!..

كان يدرك أن الأمر جد خطر، وأن ليس لهذا المرض دواء.. لقد نصحه الدكتور بأن يستريح جيداً ولا يتعب نفسه لمدة ثلاثة أشهر ثم يعود إليه.. آمن بأن المرض الذي انتابه هو تقدير إلهي، ولا اعتراض لحكم الله.. كان يعرف معنى التوكل معرفة حقيقية.. قام وخطا نحو المكتبة وتناول منها المصحف الشريف.. وراح يتلو سورة الكهف.. قالت وكلها آذان صاغية لما يتلو:

– ولـمَ سورة الكهف!.. ولـمَ لا نتابع تلاوتنا من المكان الذي وقفنا عنده؟!..

– قرأتُ في حديث شريف للنبي صلى الله عليه وسلم أنه إذا قرئت هذه السورة ليلة الجمعة كانت دواء لكل داء.. وإني أؤمن من صميم قلبي أنه الصادق المصدوق وأن أقواله دواء لكل مرض

وشفاء لكل مريض بإذن الله تعالى..

صمت لحظات، ثم أخذ يحدثها عن اليقين العميق مستشـــهدا على ذلك بهذه القصة...

- لقد أصاب قحط قاتل قرية من القرى. فلم يبق عند أهلها قطرة ماء يشـــربونها أو يســـقون بها دوابهم.. لم يجدوا سبيلا سوى الدعاء إلى المولى عز وجل.. احتشـــدوا رجالا ونساءً، صغاراً وكباراً، جمعوا دوابهـــم وخرجوا إلى البراري والقفار راجين من الله أن يغيثهم .. إمامُ القرية يدعو والأهالي يؤَمّنون، يستغفر فيستغفرون، يوحّد فيوحّدون.. وما هي إلا دقائق حتى تراكمت الســـحب وأمطرت عليهم الســـماء مـــدراراً.. فتبلل الجميع إلا فتاة صغيرة.. آمنت إيمانا يقينا بنزول المطر عنـــد خروجها من القرية، فأخذت معهـــا مظلة كي تحميها من البلل وقطرات المطر..

ثم قال:

- ونحن الآن يا عزيزتي في أمس الحاجة إلى الدعاء..

منذ ذلك اليوم راح صابر ووفاء يتلوان ســـورة الكهف كل ليلة جمعة.. ويناديان ربهما بقلب خاشع، وإيمان تام في غسق الليالي.. طرقا باب الشافي سبحانه بإلحاح وتضرعا إليه باستمرار..

وبعد ثلاثة أشهر وعندما ذهب ووفاء إلى الطبيب لآخر مرة، كان الحزن قد أرخى سدوله عليهما بأنواع الهموم والاضطرابات.. ألم يكن مرض بلا دواء؟! إذن لمـــاذا الأمل والرجاء؟!.. قدمت الممرضة نتائج التحليـــل إلى الطبيب.. تناولها وراح يجـــول بنظراته فيها دون أمل.. صمت طويل ومثير.. وفجأة أشـــرقت أسارير الطبيب وحدق بعينين مذهولتين متعجبتين.. كانت النتائج كلها إيجابية.. وقد توقف المرض وتراجع.. قال وهو مبهور الأنفاس:

- يا إلهي!؟.. لا أصدق ما أراه!.. توقف المرض! كيف حصل ذلك؟..

كلمـــات بعثت البهجة والضيـــاء في وجه صابر ووفاء، فتألّقت عيناهما بوميض مشرق. فتمتم صابر:

- الحمد لله.. هذا من فضل ربي العظيم.. ■

(*) كاتب وأديب تركي. الترجمة عن التركية: نور الدين صواش.





واحة القراء

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته..

أما بعد، أحمد الله العلي القدير الذي عرّفني بهذا العلم الغزير والنبع الطيب للدراسات الإسلامية لمختلف المفكرين، ألا وهي مجلة "حراء". لقد كان أول لقاء مع هذه المجلة أن كانت هدية لي من طرف أستاذي التركي. ومنذ تلك اللحظة عزمت إلا أن أتبع هذا الضوء الروحاني الذي يعالج مختلف القضايا التي تمس الروح. أشكركم جزيل الشكر، شكرا لا حدود له لأني أحب مجلتكم القديرة والرائعة.. أتمنى لكم دوام التألق والنجاح..

محبتكم خديجة / الجزائر

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد

أتابع بكل التقدير والإعزاز أعداد إصداركم الجاد المتميز، والتي هي بحق منارة إسلامية ثقافية فكرية لا غنى عنها للباحث أو للقارئ، حيث أنها تمثل بجلاء منهج الاعتدال والوسطية الذي يمثل فكرنا الإسلامي خير تمثيل، فمعكم الله تعالى، وإلى الأمام دائمًا من أجل إثراء الفكر الإسلامي المستنير.

يسري عبد الغني عبد الله / مصر

السلام عليكم ورحمة الله..

مجلتكم تستحق التقدير والتشجيع.. فجزاكم الله خيرا، وأتمنى لكم النجاح ومسيرة طويلة لخدمة الأمة الإسلامية...

محمد بن الطاهر / المغرب

السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته..

أتقدم لسيادتكم الموقرة بهذا الطلب، راجيا منكم إفادتي بالأعداد الأخيرة لمجلة "حراء" التي اكتشفتها صدفة عن طريق الانترنت وقرأتها.. وما جذبني إليها موضوعاتها الحديثة ومنهجها الإسلامي وبخاصة مواضيع التربوية بحكم مهنتي أستاذ تعليم ورئيس جمعية اجتماعية.

عمار جلود / الجزائر

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته..

أشكركم جزيل الشكر على الجهود التي تبذلونها لإنجاح هذه المجلة المتميزة، والتي أتابعها باهتمام بالغ. مع تحياتي الخالصة، مصحوبة بدعواتي الصادقة لكم جميعا بالتوفيق، وبمزيد من النجاح للمجلة. والسلام.

رشيد سوسان / المغرب



- تجربة خصبة وعميقة في العمل الدعوي
- صياغة جديدة لفقه الدعوة والدعاة
- فقه المعاناة والألم من أجل الدعوة
- قواعد أساسية منضبطة في العمل الدعوي
- الدعوة حياة، وحياتها بأنفاس دعاتها

طرق الإرشاد

في الفكر والحياة

المؤلف : محمد فتح الله كولن

المترجم

إحسان قاسم الصالحي

عندما لا يحترق القلب شوقا، والروح عذابا، والذهن همّاً فلا تتكلم، وإلا فلن تجد أحدا يصغي إليك.



مركز التوزيع فرع القاهرة : ٧ ش البرامكة، الحي السابع، مدينة نصر – القاهرة / مصر

تليفون وفاكس: 20222619204+

حراء

مجلة علمية ثقافية فصلية

www.hiramagazine.com

مصر: ٧ جنيهات • تركيا: ٥ ليرات • أوروبا: ٣ يورو • أمريكا: ٤,٥ دولار



الضوء والزيت

ضوءٌ محبوس في مشكاة فانوس، ولولا الزّيت المسكوب من زيتونة المولى المعبود...

لَمَات النور وعَمَّ الديجور، وتهاوى إلى القاع كُلُّ مُتعَبٍ وخَوَّار، ومتعثّر ومحتار...

بينما الأمل معقود، وعون الله ممدود، للصادقين السائرين...

الذين لا يتعبون، وعن السير لا يتوقّفون...

* * *